رواية
الحائر
آراس حمي

الحائر

رواية : أراس حمي

الإهداء: إلى أخي الصغير أزاد

الكتاب له حقوق محفوظة ويمنع نسخه أو إعادة نشره دونَ إذنٍ مسبق من المؤلف

1

تهز الحيرة ثبات الكينونة، أما حيرتي فتتحول لحيرة الكلي عن الكلي، لكنني الآن وقد شعرت بالغياب المفجع سأكتب هذه القصة

2

نغمة غريبة اقتحمت موسيقى قلبه بينما أصابعه تدير المفتاح في قفل باب المبنى، لم ينظر حوله، الشارع خالي من البشر والأصوات، كان يفكر كثيراً قبل أن يصل أما الآن فقد نسي كل تلك الأفكار، ولأسباب مجهولة صار قلقاً بعض الشيء، ها قد دخل إلى البناية وهو شارد الذهن.

3

توقف زغروس عن الحركة بعد أن شك بوجود شيء ما في منزله، كان لا يزال في عتمة الممر يتحرك كالبهلون جيئةً وذهاباً، ولأنه يدخن بشراهة سعل طويلا حتى كاد يفقد توازنه، أخرج مفتاحه من جيبه وهو يحاول سماع ما يحدث في الداخل، يترقب بحذر شديد ما سيثير الانتباه، استمر هكذا لأكثر من دقيقة وشعوره يشتد قلقاً ورهبةً في زوبعةٍ من الظنون والشكوك والأسئلة، لم يحدث أو يسمع شيء غريب ولكنه في الوقت ذاته لم يتغلب على حسه الذي يشبه أحساس الفأر حين يشك بوجود ثعبان بقربه، تراجع إلى الحائط الذي خلفه، نظر إلى الأدراج نظرةً طفولية ثم إلى باب مدخل البناية وذهب يتفكر بضجرٍ كضجر القطط " هل أخرج للشارع أم أجلس ريثما يحدث شيءٌ ما، أي شيء، كيفما كان؟ "، جلس على الدرج بصمت مطبق بعد أن أعاد المفاتيح إلى جيبه، ووضع الزهرة التي أشتراها في طريقه بجانبه، مرت عليه دقائق معدودة وهو مشغول الذهن، مرعوب الكيان، مهدود القامة، ينظر إلى باب البناية بازدراء ويشرد شرود التماسيح ثم يعود للتفكير في ما يحدث في داخل بيته تفكيراً ثقيلاً وهو يتخيل خيالات فوضوية شتى، لبرهةٍ تراه يتنفس بهدوء ولبرهةٍ أخرى تراه يطلق زفيره

ويسحب شهيقه بقوة، وبين الدقيقة والأخرى يغير وضعية جلوسه حتى لا يؤلمه ظهره الذي كان قد تكسر تعباً بعد يوم عمل طويل، أظهر له خياله المتعب رؤيةً مفاجئة، تذكر المشهد الذي حصل معه في العمل، ذاك المشهد الأولي، حين نظر إلى وجه زميله بحركة خاطفة ووجده غريباً وموحشاً، رغم إنهما كانا يتحدثان حديثاً طويلاً قبل ذلك ولم يرى وجهه هكذا حين ذاك، تصور ورسم وجه زميله في ذهنه وكاد يرتجف من غرابة وجهه في الخيال، تلك الغرابة العجيبة التي تجعل الإنسان يتجرد ويخرج من الحدث ليدخل في عجبٍ طويل، لم راه هكذا أو لماذا كان وجهه غامضاً ومثيراً للعجب لم يعلم حيثيات ذلك بدقة، لكنه قال لنفسه إن في ذلك نبأ أو لعنة قادمة بعد أن شعر بالاضطراب الحاصل في هذه الساعة الأخيرة، بحث متعمقاً عن تفسيرات أدق وأقرب لليقين إلا أنه شعر بصعوبة في فهم الواقع، أخرج علبة السجائر الكبريت من جيبه ثم من شدة ضبابية الأحداث خاف من أن يسمعه ذاك الشيء الموجود في المنزل إن كان لديه أذان، فأعاد أعواد الكبريت إلى جيبه بخفة ولكن السيجارة بقيت في فمه يتلاعب بها يميناً ويساراً، أحس أكثر بالصمت الذي يسكن الممر، هذا الصمت العظيم، كان لا يلتفت لجانب إلا وهو يشعر إن شيئاً ما في ذاك الجانب، ومع إن الممر كان مظلماً إلا إنه كان يرى جيداً، أو سيرى إن وجد شيئاً غريباً في المكان، إن كل ما كان يفعله هو السكون في مكانه وتدقيق في كل ما هو موجود في المكان، وجد أشياء على

جانب الممر، قال لنفسه إنها لجاري في طابق الثاني، ثم حاول تذكر إن كانت موجودة في الليلة الماضية في هذا المكان، أو إن كان تحرك شيءٌ من مكانه، إلا إنه لم يجد ما يثير الغرابة، وقف فجأةً ونظر إلى باب بيته نظرة ألمٍ صامت ثم قال لنفسه بفضولٍ حاد، وكمن أكتشف لتوه موت عزيز

-ماذا يعني أن يوجد شيءٌ ما في بيتي؟

وسع عينيه أكثر، فتح فمه متنفساً كالهارب من فكرة ما، أتكأ جيداً على الجدار ثم أشتد عليه شعور الانزعاج شدة الاختناق، وجهه بات مشدوداً، الاحتقان صار جلياً عليه، ثم بدأت ملامحه تتغير، تتحول، تنشد، من الانزعاج إلى السأم المفتعل ثم أخذ الألم يصرخ من ملامحه صراخاً عالياً، مفرطاً في الشعور إفراطاً كبيراً، وبعد ذلك بلحظات دخل أحدهم إلى البناية بينما زغروس لايزال متقوقعاً حول ذاته، لم يتوقف الداخل ولم ينظر إلى زغروس كأن لا أحد في الممر أو لديه فكرة تشغل كل عقله، راقب زغروس حركاته بتأمل، كان منتظماً في حركاته ومشيته، ولأن الممر معتم لم يعرفه كما أن هيكله البشري الظاهر لم يدل عليه، ربما يكون غريباً، أو لصاً أو شبحاً، لكن ماذا يفعل هنا وإلى أين يتجه؟ صعد الأدراج وزغروس لايزال يحملق فيه من الخلف، بعد ذلك دخل شخص آخر، أيضاً لم يكون معروفاً ولم يتوقف ولا حتى عبر عن رؤيته لزغروس، ثم بعده دخل آخر فآخر، هكذا على التوالي، شخص بعد شخص، مرت دقائق والأشخاص

يزدادون، يمشون ببطء ودقة، يعرفون تماماً أين يذهبون، أو ربما مؤدلجون، أو لديهم مشروع متحد، بعد أكثر من عشرين شخصاً توقف باب البناية عن استقبال البشر فجأة، لم ينشغل زغروس بهم كثيراً ففكرة بيته أهم من الأشخاص الغرباء والحدث الغريب في البناية، فعاد يسأل نفسه بالشعور ذاته، بالصراخ ذاته

-ماذا يعني أن يوجد شيءٌ ما في منزلي ؟

تعب من الوقوف والتذمر، فعاد يجلس متفكراً بهدوء مصطنع

- كيف يمكن لشيء بغيض أن يتدخل بيني وبين نفسي، أن يمنعني من حقي في العيش مع الطبيعة وتنفس الهواء الحر، إن هذا شيء سيأخذ حيزاً كبيراً من تفكيري، من اشتغالي على لحظتي ودربي، على مشاعري وكينونتي، سيجعل مني كائناً يئن في نفسه طيلة وجوده في البيت، لن أعود قادراً على الانسجام مع الموسيقى، وقد يحرمني من الاستماع حتى، ما هذا! كيف أخذ هذا الشيء تصريحاً بما يفعله ومن من أخذه! و إرادتي؟

تكور على نفسه كالحلزون، حضن جسده عناق الكائن الهارب من وحشة الوحدة، والقلب الذي هو صمام بوابة الحياة يشتعل بشدة، انخفض رأسه أكثر من اللازم، بات لا يرى إلا حذائه الأسود.

ـ إنني متعب تعباً ثقيلاً، ومرهق إرهاقاً شديداً، ماذا سأفعل؟ كيف يمكن أن لا شيء يشعر بي الآن، ما حيلتي من هذا الألم الذي يطبق على أنفاسي، من هذه الحياة التي تحولت إلى جحيم في بضع دقائق، ما ذنبي فيما يحصل معي، أه كيف يمكن لأسئلة أن لا توجد لها أجوبة، لسكاكين هربت من مطابخ الوجود، لأشواك تمزق أوراق الوردة، ما معنى كل ذلك، ما المعنى من أن انتظر ما لا أعرفه وأنا أتجمد في هذا البرد الخارجي وأحترق في هذا الجحيم الداخلي.

زاغروس حساسٌ جداً، هش هشاشة الأوراق، وقد يبكي من كلمة أو حركة، أحياناً كان لا يخرج من منزله لأيام مجرد انزعاجه من شيء بسيط كل البساطة، وإن جُرح مرةً فقد تدوم فترة ألمه لأكثر من شهر يفتق فيه الجرح بوسع شعوره بالألم، يداوم على تذكر ما جرحه وكيف جرحه رغم كرهه لعودة الإنسان إلى الماضي، كأنه يرى الدم وهو يتقطر من جرحه نقطةً نقطة، كثيراً ما كان يشعر إنه ملعون، وإن حساسيته هي لعنته الخاصة في هذه الحياة العادية، وقد يجلد نفسه أكثر حين يرى كيف يتألم من أشياء صغيرة، أشياء لا تجرح كائناً، كان هو الكائن الذي لا يفهم كيف يمكن لغشاء كينونته أن يكون شفافاً ورقيقاً لهذه الدرجة، بتلك المبالغة الشعورية، في إحدى المرات كان يمشي نحو البحر فغربت الشمس، صعق، تألم جداً، كاد يرمي نفسه في البحر رغم تفاهة الحدث، أنكمش على نفسه على الجسر وهو ينظر إلى السماء نظرات عتب وازدراء، كثيراً ما كان يقول

لنفسه كيف سأعيش وأنا هكذا، بهذا الجلد الذي يتمزق بسهولة مزعجة، كيف يمكن لوردةٍ أن تعيش شتاءً بارداً، كيف يمكن لإنسانٍ أن يكون له عمراً من الأشواك، أن تتحول لحظاته إلى أشواك حادة تحت أقدام حياته، ومن الغريب أيضاً إنه أحياناً كان يصل إلى مرحلةً قاسية من البرودة واللامبالاة، لا يعود يشعر بانه موجود لفرط ما مر به من ألم، قد يحرق أصابعه وهو يشعل سيجارته في تلك اللحظة الساخنة، وإن كان يتحدث مع نفسه فيقذف نفسه بعبارات قاسية وثقيلة، إلا إنه يعود بعد دقائق إلى ما قاله لنفسه ليتجرد مجدداً من قسوته ويعود شاعراً مفرطاً في الشاعرية، شاعراً قد يموت إن ضرب بوردة أو بدمعة، إن هكذا كائنات حياتها عبارة عن بحر لطيف وأزرق من سطحه، وعميق الارتفاع ومعتم من قعره، لا تسكن أبداً، دائما ثمة مدٌ وجزر، تحركٌ دائم ما دام الزمن يعمل بأدواته السرية على هذا الكوكب الأزرق، أما عيون هذه الكائنات فثلث رؤيتها تكون على التفاصيل الدقيقة الموجودة في اللحظة أو اليوم المعاش، تقصد الأصوات والرياح والألوان، تدقق وتتعمق عمقاً مثيراً في الكلمات وما وراءها، في الأصوات وما وراءها، في الصمت وما وراءه، في كل لحظةٍ حية وميتة، في كل مشهدٍ حي، في المكان وأبعاده وما موجود فيه من أشياء ثابتة ومتحركة، وكان كثيراً ما يتعجب من أحداث العالم، يستغرب من سطحية الموجودين في الحدث، ويضع نفسه مكانهم ليذهب بالأحداث إلى منعطف

ممتلئ ومثقل بالمشاعر والأحاسيس، وكثيراً ما كان يقول لنفسه في تلك اللحظات المفعمة بالموسيقى إنني أعيش الحقيقة، إن حياتي حقيقة أعلى من الحقيقة ذاتها، وإنني المعنى الذي هو كل المعاني، حين يصل إلى ذروة النشوة الشعورية بما يشغل قلبه، قد يكون غريباً أكثر إن عرفتم إن حياته العملية عبارة عن دائرة مغلقة، يستيقظ ويذهب للعمل ثم يعود ويسمع الموسيقى إلى أن ينعس وينام، ومن النادر أن يدخل في نقاش طويل حتى لو كان النقاش عن الموسيقى، إنه القبطان الذي يعشق الإبحار في بحار الموسيقى، حين تراه يسمع الموسيقى تندهش من ملامحه، وكأنه يسمع صوت الكواكب خارج مجرتنا، أو كأنه قد وصل إلى مكانٍ لا يمكن لبشريٍ تطور وولد أن يصل إليه بذهنه وقلبه، ينتشي انتشاء الغريق والناجي، يتسرب في مسامات الوجود ثم يلملم نفسه ويعود ضوءً لا تعلم إن كان مادةً أم طاقة، تراه أحياناً هكذا وتراه أحياناً أخرى نقيض ذلك، في العموم لا يمكنك أن تحكم عليه وهو يثمل بالموسيقى، ومن الطريف إنه كل يوم بعد أن يسكر ويتعالى ويتعالج بالموسيقى تراه يؤدي رقصةً لا تفهم، لا تستطيع أن تصنف الرقصة حسب ثقافة أي شعب موجود أو إن كان موجوداً في التاريخ، حركاته غير متوقعة وغير مألوفة وغير متجانسة، إنه يرى في الموسيقى عوالم وأفلاك، أكوان وذوات، يرى ما هو غير مرئي، يحس بما هو غير محسوس، يمتزج دمه بالموسيقى، تختلط نفسه بالنغمات، تراه هنا ولكنه في مكانٍ

آخر خلقه بالموسيقى، في ميدانٍ شعوري آخر، كأنه يطير في الفضاء، إن اليوم الذي لا يسمع فيه الموسيقى يومه الآخر يكون عبارة عن قنبلة موقوتة ستنفجر في أية لحظة في أي شيء أو في أي أحد أو ربما يجن، أما غير ذلك فحياته ليست إلا قفصاً لفأرٍ متلذذ بقضبانه، الخلاصة إنه يرى حياته أو يرى الحياة كلها في الموسيقى، ويقول الموسيقى هي الوحيدة التي تكسر القضبان وتحررني من الأشياء، تلك الحرية التي لا يمكن أن تكون مفهوماً في داخل اللغة أو مصطلحاً يلفظ وينتقل بين الأفواه والأذهان، تلك الحرية الحرة من الذهن واللغة.

- كفى سأدخل بيتي وليحدث ما سيحدث

صرخ على نفسه بذلك ثم وقف بعزمٍ وجرأة، أقترب من باب منزله، نظر بحنان الأم إليه وهو يخرج ببطء مفاتيحه الصلبة الرنانة، يداه ترتجف رجفةً مزعجة، أسنانه الفوقية والتحتية موضوعة فوق بعضها بقوة الغضب، تنفسه منقطع، جلد جبينه مرفوع بقوة وريب، يكاد قلبه يتوقف من سرعة الخفقان، أدخل المفتاح في الباب وهو يحرك فكرة (أن يوجد ردة فعل من الداخل) في ذهنه كما يحرك الإنسان طبخة على النار، أدار المفتاح ببطء، وإذا به يسمع شيئاً ما، توقف عن كل شيء بقلق، حرك أذنيه، هل حقاً سمع شيئاً ما؟، أنتظر أكثر من دقيقة محاولاً التأكد من الصدى، ثم أكد لنفسه بعجلة من أن لا شيء يثير الجدل، عاد إلى المفتاح،

حركه إلى أن وصل إلى مكان القفل، حركة بسيطة ويرجع الحديد إلى الوراء، ولكنه حقاً هذه المرة سمع شيئاً ما، أوقف المفتاح مجدداً وعاد يتأكد من الصوت، مرت لحظات وإذا به يسمع صوت بكاء ممتلئ بمشاعر أنثوية، إنها امرأة

ـ هل هذا الصوت حقيقي؟

تساءل وهو يتراجع إلى الجدار الخلفي وقلبه يجري بنبضٍ فائق السرعة

ـ هل هو من داخل بيته أو من الخارج ؟

فجأة طرق باب بيته عدة طرقات من الداخل، فزع زغروس، تجمد في مكانه، إلا أنه تشجع وطرق الباب وفق إيقاع تلك الطرقات، فعاد يُطرق الباب مجدداً، وهو أيضاً فعل ذلك، هكذا لعدة دقائق من الحيرة والشك، ثم فتح باب البناية مجدداً، نظر زغروس إلى الباب وإذا بطفل صغير يدخل ويدنو نحوه، وما أن غلق الباب كان قد وصل إليه، توقف الطفل بجانبه فجأة، لاحظ زغروس ابتسامة صغيرة على شفاه، فهزت رعشة خفيفة جسده، كان الطفل صامتاً، سكاناً في مكانه، ينظر نحو زغروس بحدة قاطعة، لم يفهم زغروس رغبة الطفل، كأنه قادم من أجله!

ـ ما اسمك أيها الصغير

قال ذلك بنبرة خائفة لكن الطفل لم يتحرك من مكانه ولم يهتم بالسؤال، مسد زغروس شعره ثم اقترب من وجهه، كانت

الابتسامة لا تزال قاطعة، لم يدري ماذا يقول له، مرت عدة ثواني هكذا، بتواصل غير مفهوم بين العيون، ثم فجأة انطلق الطفل صاعداً نحو الأعلى.

4

بالزمن الثقيل، بالضجر المتطفل، بالسكون، بالتيه، مر على زغروس أكثر من ساعة وهو يفكر ويتشنج، يتخبط في جدران ذاته، لا يدري ماذا سيفعل ولا ما سيحدث له، كسجينٍ متوحدٍ في سجنٍ مكتظ بالمتوحشين، خارجه لا يتكلم عن داخله إلا بتلميحات وإيحاءات بسيطة وموجزة، وقد بدأ ينعس مستسلماً لكل شيء، وساخطاً على وجوده الحي، لم يفكر قط بالغد أو الغد أبعد من أن تصل إليه أصابعه البسيطة، أما الحاضر فهو جوهر رؤيته، ولكن في نوبة للمكانٍ حدث تغييرٌ في مجرى الأحداث، انقلاب سيغير كل شيء، فتح باب جاره في طابق الذي فوقه ونزل منه أحدٌ ما، حين سمع زغروس صوت الباب وصوت أنفاس بشري، تحرك حركات بسيطة ليتحرر من ثقل النعاس، موشك على فرحٍ طفولي بالقادم المفاجئ

-لم أنت جالسٌ هنا!؟

طرح جاره سؤاله الفضولي بتلقائية فجة، قفز زغروس من مكانه بحركة غير واعية وبتعابير طفولية، شعر جاره بوجود إثارة غريبة، حرك رأسه يستفسر عما حدث، ولكن زغروس لم يستطع شرح ما حدث، ارتبك وتحرك حركات بهلوانية لا تدل ولا تفصح عن معاني واضحة، مسك الجار يد زاغروس وصعد به إلى منزله رغم كل البعد بينهما، شك زغروس بوجود علاقة بين جاره والشيء المجهول

الموجود في بيته، لكنه أكمل يذهب معه، وقبل أن يدخل زغروس بيته تذكر الزهرة التي اشتراها، فعاد وأخذها دون صوت ملحوظ ودون أن يسأله الجار عن ذلك، إن علاقة زغروس بهذا الجار الذي اسمه غمكين مجرد علاقة ترحيب وسلام، كثيراً ما يلتقيان حين يأتي زغروس من عمله يراه يخرج وهو يلعن حياته بغضب، وأحياناً يسمع صراخه على أبنته الوحيدة التي لم يراها إلا مرات قليلة، كان زغروس ينزعج منه، من صوت قدميه حين ينزل عن الأدراج، وأما غمكين فكان يرى في زغروس غرابةً مثيرة للفضول وطيشاً طفولياً في وحدته، هو أيضاً كان ينزعج من الآخر، خصوصاً حين تصمت ضجة المدينة مساءً، ليسمع صوت موسيقاه الغريبة المزعجة التي لا شعور فيها حسبما يرى، أما الآن وبعد دخول زغروس بيت غمكين ثمة سكون ثقيل بينهما، أحدهما لا يعرف كيف يبدأ بالكلام ولا الكلام يرحمهما ويأتي إلى المشهد، جلسا في إحدى الغرف، شرد زغروس في أثاث الغرفة، في الألوان والأشكال الهندسية، محاولاً استيراد وعيه من ضباب النعاس، كان لايزال مرتبكاً ارتباك الماء أمام الريح، يحاول إخفاء ذلك بأن ينظر في عيون جاره نظرات تؤكد على وجوده هنا، في المشهد الغريب الذي لا يدري إلى ماذا سيفضي، إلا إنه يفشل في ذلك فشلاً مهولاً، لكنه بعد أن فحص الغرفة جيداً جازف ونطق كلماته الأولى، نطقاً ثقيلاً لا يسمع جيداً

- بيتك جميل

كان غمكين يتحرك كثيراً في مكانه، ووجهه محمر وكأنه خرج من معركة قبل دقائق، ويبدو عليه الغضب من حركات أصابعه التي لا تتوقف، لم يسمع غمكين جيداً لكنه تحسس نظرات زغروس الفضولية نحو المكان

ـ نعم، حقاً، أه شكراً لك، هذا البيت تركه لي والداي حين رحلا عن العالم

أحس زغروس بالندم، رأى إن انعطاف جاره بالحديث غريب، لم يرغب بالذهاب أبعد.

ـ أه أنا آسف سيد غمكين، ما كان يجب أن أفتح هكذا باب.

قفز غمكين بصوته قفزة غريبة كانفجار البركان

ـ لا، لا تتأسف، عاديٌ ذلك، أنت تعلم بالطبع كلنا سنموت.

توقف قليلاً ثم أكمل يقول ووجهه يكاد ينفجر من الغيظ على شيء ما مجهول

ـنعم سنموت، كما لم نولد مطلقاً، كما لم نعش يوماً، لن نعود موجودين في ذاكرة أيضاً، إذ حتى الذين سيسمعون بموتنا سيموتون، هذه هي الحقيقة التي أراها، نعم هي الحقيقة الرئيسية في الحياة، سنموت، كلنا موتى مؤجلون، نولد لنموت، نعيش لننتظر الموت، نعم، هذا هو الموت، هل ترى ذلك؟

تفاجئ زغروس من أقواله، أبهذا الكلام يقابل الجار جاره؟، ما الذي يحاول أن يقول، هل يهدنني؟، لكنني لم أفعل له شيء! نفض ذهنه ثم أخذ السيجارة الذي كان قد مدها إليه، أشعلها سريعاً وهو يحاول كتم تعجبه من نفسيته المتعصبة، شعر بقدوم ريحٍ ستأخذه إلى مغامرة درامية في حياة هذا البيت، لكنه إلىٍ الآن لم تلمسه ابتسامة ابنته الغائبة، شعر بالفضول، قال بلطفٍ بريء بعد أن عاد يحلل مشاعر جاره الصادمة.

-أظنني أرى ذلك، لكننا نعيش أيضاً، نحن من نصنع من الحياة حياةً

قفز غمكين بصوته الخشن وقد جذبه الكلام في خوض معركةٍ جدلية، وأثناء ذلك طُرق باب البيت فقام يفتحه وهو يتكلم

- لا، نحن لا نعيش، نحن نتدرب لنموت، يأكلنا الزمن، الوهم يصنع لنا لحظات نظن إننا نعيش، كل شيء يمر، يمر فوق أعناقنا دون أذن منا، لا يحترمنا الزمن أبداً، لا تقدرنا الحياة أبداً، نعم، قد تظن الآن إنك تعيش فقط لأن لديك إندفاع، لديك طاقة، لديك شهوات ورغبات، لكنك متوهم، أنت لا تعيش، أنت لا تفعل شيء يستحق الذكر.

ثم عاد إلى مكانه بعد أن لم يجد أحداً أمام الباب، مكرراً تكراراً مزعجاً كلمة " لا شيء"، أما زغروس فكان منسجماً مع كلامه ولايزال يشعر بالقليل من الدفء والسعادة بعد أن

وجد مكاناً يبيت فيه أو هكذا حلم، فقال بهدوء محاولاً جعل الحديث ألطف

- أظنك تحكم علي وأنت لا تعرفني بعد !

- لا، لا تفهم كلامي هكذا، أنا لا أحكم عليك، ولا على حياتك، أنا أتكلم، نعم أنا أتكلم عن طبيعتك، عن الحياة التي هي تعيش في داخلك، أو عن ما تراه من حياة، أترى؟ لا، أنا أتحدث عن الحياة بشكلها المطلق.

- وهل يمكن أن توجد حياة بوجه مطلق ؟

- لا، نعم، توجد حياة، يوجد وجه فصيح للحياة يمكن للمرء رؤيته بعد الأربعين، بعد أن يعيشها، بعد أن تضحك عليه الحياة كثيراً، أه كم ستضحك عليك الحياة، لا تفهمني هكذا، أنا لا أتهكم عليك، بل أتألم، ربما أتألم جداً لكل ما ستعرفه بعد الأربعين، هل حقا ستعرف؟، إن عشت لوقتها، الحياة صارت تقتل في العشرين أو الثلاثين، قد لا تصل إلى الأربعين، لكن عليك أن تعرف ما هو هام، الذي هو أن الحياة قاسية، حقيرة، عاهرة، أكثر من الموت، ينجو منها المرء بأعجوبة، كل من وصل إلى الخمسين فحياته معجزة، حقا؟، معجزة لآنه تألم جدا، الحياة عبارة عن ألمٍ سخر الزمن والمكان لنفسه، سخره ليقامر مع الإنسان، لكن انتظر، الحياة بعد الخمسين ليست معجزة كما تعتقد، نعم هي معجزة، لكن معجزة متطرفة تشل جسد وصوت الإنسان، هل تفهمني، لا أظنك تفهمني، أنا أتكلم يا جاري الغريب عن

الشيخوخة، لا، لا تنزعج من كلمة غريب فأنا احترمك وأتفهم طبيعتك قدراً ممكناً، حسناً، كنت أتكلم عن المعجزة، لا عن الشيخوخة، إن الشيخوخة تأتي لتمتص ما تبقى من دم في الإنسان، تمتصه حتى يصبح فقط جلداً، جلداً من التذمر والاحتقان المفتعل، إنها القيامة الشخصية التي تحدثت عنها الأساطير، فقط أخطأت الأساطير حين قالت عنها إنها جماعية، لا هي شخصية جداً، أنا لا يستطيع أن أنسى إنني قد صرت صديقاً للشيخوخة، لقد اقتربت مني كثيراً حتى صار الموت ملتصقاً بكل شيء أراه، هل تعلم أنني أرى الموت في وجهك، في توترك الغريب، لم أنت متوتر؟، أه حسناً أنا عجوزٌ يستحق أن يتوتر منه الآخرين، لقد صرت كالسلاحف البطيئة في العيش، وذو جلد مجعد ممتلئ بأثر وتجاعيد الزمن، هل فهمتني الآن؟ هل فهمت أنني هكذا لأن الحياة تفعل بي ذلك، لكم أحتقر الحياة، لا تخف، فقط في بعض الأحيان، أين العدالة يا جاري، الحياة شريرة جدا، لقد أخبروك في الصغر إن العدالة يمكن تحقيقها، خرافات، هراءات، لا توجد عدالة، لا توجد حياة في الحياة، لن تعيش الحياة التي تتخيلها، لن تعيش إلا حياةً واحدة، ستتألم كثيراً لحيوات لم ولن تعيشها وستموت كطائر وقع فريسة لأحد الصيادين، أه كيف يمكنني كتمان كل ما أشعر به، لا، لن أعتذر منك، عليك أن تفهمني، لا لأنني وحيد ولا أحد يفهمني، بل عليك أن تفهمني كي لا تقع في حفر المستقبل، لا، أنا لا أمثل دور الفيلسوف، أنا أمثل ما عشته، ما شعرت

به، ما كتمته في صدري، وكل تلك الحشرات في داخلي، إنها حشرات، هذا السأم ينتشر كالحشرات في داخل الإنسان، ماذا يمكن أن أفعله بعد هذا العمر؟، أنا جالس طوال الوقت على نفسي، صرت أكره نفسي حد الصراخ، لم يعد مطلقاً إمكان فعل شيء يستحق، إنني لم أعد أشعر بالشمس، لم تعد الشمس تزورني، لم تعد تضحك لي، لم أعد ذاك الذي يمكنه أن يفعل أي شيء، حقاً!، وهل كان ممكناً أن أفعل ما أرغب فيه حين كنت في سنك!، أنا أتحدث حين يتحول هذا البيت إلى سجن، سجن فيه الكثير من الغربة والألم، أنا سجين حياتي كما كل إنسان هو سجين حياته، أرمي حجراً في الهواء فستراه يسقط، ليس لديه احتمال آخر إلا أن يسقط و يسقط، أه لقد تكلمت كثيراً، من النادر أن أفتح فمي بهذا القدر، لربما فهمتني؟

تألم زغروس عليه وقال باتزان مبالغ فيه كاتماً شعوره تجاهه، لم يكن إلى الآن قد امتلك نفسه بعد.

ـ أظنني فهمتك لكن أنت تبالغ في كثير من الأشياء، لا ترى إلا أشياء صغيرة من الحياة، أو من حياتك، عليك أن تكون سعيداً في إنك تعيش، مجرد أن تعيش فأنت تمتلك سعادة، من النادر أن يصل أكثر من حيوان منوي إلى البويضة.

عدل غمكين جلسته متحركاً حركاتٍ كبيرة كأنه يطلب من قلبه الطاقة ليخرج ما بداخله من دخان، هز رأسه كثيراً، مسد جبينه ثم بدأ يتحدث بنبرة غليظة، وأثناء ذلك تعالت

أصوات صاخبة غير مفهومة في الخارج أخذ كل تركيز زغروس

- عما تتحدث يا رجل، عن أي سعادة؟ الحياة عبارة عن سكين حاد، مجرد أن تعيش فأنت متألم، لا فقط لأنك تعيش إنما لأنك تحس بأنك تعيش، بأنك ستحس بالكثير من الألم في محطات كثيرة من حياتك، أنا مقهور، كم كنت غبياً حين وصلت إلى البويضة، من هذا الأحمق الذي يرى في البويضة نجاحاً!؟، نعم أنا مقهور، بعيداً عن وجه الحياة المطلق، أنا مقهور لأنني لم أعش حياةً سعيدة، وكنت مقهوراً طوال عمري، لكن ما ظننت أنني في هذا العمر سأكون مقهوراً أكثر من قبل، كنت أظن أن الحرب قد انتهت وسأرتاح كمحارب أستطاع النجاة بعد معركة قاسية، كنت أظن أنني سأتأمل الشمس والقمر وأنام نوماً هادئاً، كنت أظن و أظن، أنا مقهور، لم أجد أحداً يفهمني كل عمري، هل تفهم ماذا يعني ألا يفهمك أحد؟، يعني أن تكون وحيداً وحدةً عنيفة، أن ترى المرآة تعكس لك وجهك المتفحم، أن ترى المنزل يهتز دائماً، أن ترى المدينة فارغة وصاخبة وموحشة، أن ترى الكون المعجزة ناقمة مظلمة، ليس ثمة أحد غيرنا في هذا الكون، ونحن البشر رغم إننا وحدنا فإننا نمتلك كميةً كبيرة من الوحدة تجاه بعضنا البعض، لكن، لكن عليك أن تعرف أنني حتى لو تكلمت كثيراً فعبارة أنا مقهور هي الأكثر فصاحةً وبياناً من كل ثرثرتي هذه .

ما أن أنتهى غمكين من كلامه توقفت الأصوات في الخارج، عاد زغروس إلى غمكين محاولاً تذكر ما ألتقطه من كلام غمكين، نفث آخر نفسٍ من سيجارته وقال بتركيز

-أرى أنك يا سيد غمكين عشت حياةً كبيرة، بحلوها ومرها، بفرحها وحزنها، لكنك الآن تكون صورةً خاطئة عنها، شعورك بالقهر من أشياء ما قد شوه كل الحياة التي عشتها، أنا أشعر بك وأفهمك جيداً، لكن رؤيتك عن الحياة خاطئة جداً، توجد حياة في هذه اللحظة التي نعيشها، يمكنك أن تنتطلق منها، أن تمتلك لحظتك هذه، لكنك وللآسف لا تنظر إلا إلى الماضي وهذا هو مرضك، أتمنى ألا تفهمني بشكل خاطئ.

همهم غمكين يقول بقهر

- لا أنا لست مريضاً، لا تتهمني، أفهمني، أنت لا تفهمني، أه من سوء الفهم.

- لقد فهمتك سيد غمكين

- أه تشعرني بالسعادة هذه الجملة، لكنني وللآسف أشعر بالتعاسة بعد لحظات قليلة، سبب الأول لأن هذه الجملة قد صارت من الماضي، وسبب الثاني هو أن الإنسان لا يمكن أن يفهم الآخر، تصور، الإنسان لا يفهم نفسه فكيف سيفهم غيره؟، مضحك ذلك، مضحك كثيراً، مضحك ضحكاً يشعرني بالتعاسة.

قفز زغروس من مكانه قفزةً عجيبة وإذا به يعانق غمكين عناق الإبن للأب

ـ والآن ما رأيك ؟

عاد زغروس إلى مكانه بحركات بطيئة، وبكثير من الارتباك والخجل، شعر إن الذي قام وحضن الجار ليس هو، لم يكن ذات إرادة في ما حصل، أما غمكين فقد شعر بدهشةٍ مثيرة للغرابة.

ـ جاري اللطيف، هذا من حسن طيبك، علي أن اعتذر منك، كنت أراك غريباً، الآن صرت واضحاً، صرت أراك طيباً، أه من سوء الظن، اغفر لي.

طُرق الباب مجدداً، قام غمكين وفتحه فوجد ساعة مكسورة على العتبة، نظر إليها قليلاً ثم حملها ووضعها على طاولة بينهما، بعد ذلك دام صمت غريب لعدة دقائق، إذا بغمكين يندفع قائلاً

ـ لا، لا تغفر لي، أنت لازلت غريباً لكن ليس مثل السابق، أنا أقول أن ثمة دائماً ما هو غريب في الآخر، ويتجلى ذلك في سؤال (كيف يمكنك أن تكون هكذا يا رجل؟) أو لربما يوجد سؤال أفضل (لماذا لست مثلي؟) أنا أتفهم إن الإنسان يريد أن يكون الجميع صوراً وتمثيلات له، إنها الأنانية، لا، نعم أنانية لكن أنانية ضرورية، فلو لم أكن أنانياً ما كنت أنا أنا، ما كنت سأصير أنا أبداً، أقول أن الأنانية تحافظ علينا،

وتحصننا من الآخرين، كيف يمكنني أن أحبك؟، قد تجدني غريباً في ما أقوله، نعم، حقاً كيف يمكنني أن أحبك وأنت تريد أن أكون مثلك بل وأكثر منك، أن أكون صورةً عنك، وكيف يمكنك أن تحبني لهذا السبب أيضاً، نعم الأنانية، صحيح إنها تحافظ علينا لكنها تجعلنا لا نستطيع حب أحد، وهل حقاً يمكن ذلك؟، حتى لو أحببتك فأنا أحب شعور الحب، أحب صورة التي كونتها عنك، أحب عيوني حين أراك، لأنني أخاف الوحدة، لأنني أهرب من شعور الوحدة، لا أرى إنه من الممكن حب أحد، لا يمكن للإنسان أن يرى الآخر، دعك من كلام الأساطير التافهة، لا تهتم بالخرافات، لا يمكنني أن أراك، لا يمكنني أن أحبك، أنت عدو لي، لأنك ببساطة لا تحاول أن تفهمني، لأنك لا تريد أن تفهمني، ليس لديك رغبة بذلك، لست مهتماً بمشاعر عجوز خرف، حتى أنا لست مهتماً بك، ولا يهمني ما هي مشاعرك وأفكارك، أنت مجبر أن تسمعني لأنك بقيت دون بيت أو هناك خطبٌ ما لم أعرفه بعد!، وأنا استغلك لأخرج ما بداخلي، أنا أتحدث مع نفسي عن طريقك، وأنت تسمع عن نفسك عن طريقي، قد تكون مشغولاً بشيء آخر، فقط تنظر إلي حتى لا انزعج منك وأطردك من المنزل أو حتى لا أشعر بالإهانة، حسبما كونت عنك صورة أنك طيب لهذا تحاول أن تكون مستمعاً جيداً، أه ما هذه الثرثرة، كيف سيطرت علي الشيخوخة هكذا؟، لماذا علي أن أصبح كبيراً في العمر؟.

-لماذا لا تنتحر

قالها زغروس وهو يخفي عيونه، قالها بطيش مفتعل، خرجت من فمه بإندفاع وبصوت عالي، نظر إليه غمكين نظرات تعجب لكن نظراته تغيرت سريعاً

ـ حسنا، حسنا، يمكنك أن تقول ذلك، أن تطرح علي هكذا سؤال، لقد أزعجتك واستغللت حاجتك، لك أن تقول أكثر، لكن كأنك لم تفهم إنني كنت منتحراً منذ البداية، لم تفهم أن حياتي عبارة عن حفلة انتحار، أنا منتحر يا جار، طوال عمري كنت منتحراً، في كل لحظةٍ كنت منتحراً، ماذا يعني أن تكون منتحراً، ألم أقل لك إنني مقهور، مقهور حد لا يمكنني رؤية شيء سوى حفلة الإنتحار هذه، ماذا يعني أن ينتحر إنسان؟، هل يمكن للعالم أن ترى أكثر من أنفها وتفاهتها، هل يمكن للعالم أن تفهم لم إنسانٌ ما قد أنتحر، ولكن أبعد من ذلك، هل يمكن للعالم أن تفهم رجلاً منتحراً كل لحظاته، طيلة حياته، رجل مثلي؟ يا للتفاهة، يا للتفاهة ما أتفوه به، علي أن أشرب أكثر، أن أنام أكثر، أن أنتحر أكثر، ما كان يجب أن أرى ما أراه، هل حقاً يمكن أن توجد احتمالات أخرى، حول ماذا؟، إنه القهر، إنها الشيخوخة، اللعنة، لم أعد أمتلك غرائز ولا طاقة، نعم قلت عنها وهم، لكن كيف يمكن أن أعيش دون ذلك!؟ دعني أكون صريحاً معك، وقد تجدني وقحاً، نعم، ممكن ذلك، أنا أحتقرك، لا لأنك سيئ، لا أبدأ، أنا أحتقرك، لا لأنني أتعالى عليك، أنا أحتقرك، لا لأنك مهذب وخجول، أنا أحتقرك لأنك ببساطة تمتلك في داخلك ما لا أمتلكه أنا، تمتلك قدراً جيداً من الوهم الحقيقي، وهم لم ينزع

عنه القناع بعد، لا أنا لست شيئاً، ولن أفعل بك شيئاً، مجرد إنني أحتقرك، أنا صريح معك، لا يمكنني عدم أحتقرك، يمكنك أن تمارس الجنس مع قطة، مع شجرة، مع قنفذ، أما أنا فلا يمكنني ممارسة الجنس مع امرأة في غاية الإثارة و الجمال، دعني أمضي قدماً فيما أقترفه من كلام، عليك أن تعرف إننا غرباء جداً، أنا كما الجميع غريب الأطوار جداً، لا أعلم، أنا مشوش، إننا كذلك لأننا نقترف أفعالاً قذرة ببساطة، بوجوه عادية، بملامح عادية، لكن إن فعل أحدهم بنا كما فعلنا بغيرنا ذلك سنجد الكثير من الصدمة، سننصدم بجدار صلب، أه كيف فعلنا ذلك؟!، إننا معقدون جداً، سيئون جداً، ولدينا تلك الأنانية، لا تلك التي تحدثت عنها، قد تكون هي، لكن بوجهها الآخر، تلك الأنانية التي تجعلنا نتلذذ ونحن نقترف أبشع الجرائم، تجعلنا نتمكن من الوصول إلى نشوة الأنا الأخيرة، إلى ذروة قذف المشاعر في الهواء، حقاً لست أتحدث من أشياء معينة، لا أعلم، أنا مشوش، كم أشعر بالقهر حين أعلم إن ما من لحظة في حياتي أشعر تجاهها بالفخر، بالإنجاز، بالثبات، بالكرامة، دعني أحدثك أولاً عن الفخر، حسناً، هل حقاً يوجد عملٌ ما يمكن للإنسان أن يشعر به بالفخر من صميم قلبه، ما أهمية أعظم عمل قام به الإنسان إن لم يوجد حقاً موطئ قدم للثبات الإنساني، ثم ما أهمية أن يشعر الإنسان بالفخر تجاه نفسه؟، ما قيمة الفخر في قلب ميكروب على ورقة شجرة في إحدى غابات استراليا وهو يعمل على دعم العلاقة بين الشمس و الشجرة، إن كان

الحريق قادماً، إن كانت اللعنة قادمة، إن كانت الشيخوخة قادمة؟

مرت لحظات صمتٍ ثقيلة كان فيها الهواء يرتطم بجسدهما، زغروس مبحر دون مكابح في ما قاله الجار، أما الجار فقد أشعل سيجارةً آخري دون أن يباركها بالمشاركة مع زغروس، ثم قال وهو يخرج الدخان من صدره خروج الدخان من بركان

-لا أدري ما جدوى كل ما قلته، كان يجب أن أصمت كالحجر، لكنني إنسان، إنسان من قلب وعقل وذات وجسد

قاطعه زغروس وكأنه لم يكن يسمع

- أنا حقاً وبكل قلبي أشعر بكل المشاعر التي صرخت عن طريق كلماتك

قفز غمكين صارخاً في وجه زغروس

- أنا أحتقرك، قلت لك أنا أحتقرك، لا تشفق علي فهذا ما يجعلني أحتقرك أكثر، رغم كل ما عشته ثم تأتي أنت لتشفق علي!..

صرخ أكثر وكأنه يصارع الموت

-من أنت؟ إنني أحتقرك أكثر على جهازك النفسي المنحط، هل ستصلب نفسك من أجل هذه الكائنات التي تئن وتئن، أنت أبله، كثيراً جداً، نحن سنئن إن صلبت نفسك من أجلنا أو لم

تفعل، أنت أبله، خلاياك ضعيفة، لا تسخرنا لنفسيتك المتعبة الرقيقة كورقة تافهة، من أنت؟ أنا أحتقرك وأنت تشفق علي!.

نطق زغروس بصوت خافت وخائف

- ماذا أفعل إذا؟

عاد يجلس غمكين بعد أن خمد صوت قلبه ثم قال مع زفيرٍ طويل أطلقه على شكل تنهيدة نجاة

- احتقرني، أنظر إلي كخنزير بري

رد زغروس محاولاً تجنب الصدام المباشر

-حسنا، لك ذلك

طرق الباب مجدداً، وفي هذه المرة وجد عصفور مقتول على الباب، شتم غمكين الطارق المجهول أما زغروس فقد انفجر في داخله رهبة حارقة، دام لأكثر من دقيقة وهو مشوش الذهن، تأخذه أفكار وتجلبه أفكار، أشعل عدة سجائر وراء بعضها ثم ما أن صار السكون مستفزاً، وغمكين قد صار هادئاً كالقطة أردف يقول بحنان أنثى

-ما هي قصتك يا جاري العزيز ؟

مع ضحكة ساخرة تفوه غمكين وهو شاردٌ في سقف الغرفة

-قصتي إنني لا أمتلك قصة.

صمت قليلاً ثم عاد يكمل تخطيط قلب كلامه

ـ قد تكون لي قصة أو قصص عديدة اجتمعت لتمر حياتي إلى هذه اللحظة الراهنة، لكني لا أجد ملامح واضحة للقصة الكاملة، كما إنني وكما الجميع، ليست بطل قصتي، القصص لسنا المسؤولين عنها، ولست أبالغ إن قلت إننا في القصص التي عشناها لم نعش قصصنا، كنا دائماً من الأثاث والديكور، الوجود يصنع قصته ونحن نمثل الكومبارس، حتى تلك المشاعر والأفكار كلها ردود فعل من داخلنا، والوجود هو المسؤول عن كل شيء.

ـنحن لا نقرأ ما يدور بين الهواء والصوت، بين الإنسان وذاته، بين المرآة والضوء.

ـ يا للتفاهة هذا العالم، كم من البشر يعيشون أحداثاً فارغة، يعيشون فراغاً هائلاً، يمارسون أجسادهم دون رغبة في فهم الحياة.

شرد من النافذة قليلاً ثم نظر إلى وجه زغروس بفضول قاتل

ـ وأنت ما هي قصتك؟

تحسس زغروس تسلطاً بربرياً

ـ أه قصتي، حسنا، قصتي لازالت في البداية، لازلت شاباً، لكن ثمة ألوان عظيمة وأصوات عظيمة في قصتي، قد لا تكون قصة، إنما لحظات، أنا أنظر إلى الحياة كلحظات، قد أعيش قصةً كاملة في لحظة واحدة

بوقفات كثيرة أكمل قوله

-كيف لم أفهمك!، أذكر لي مثال

- أحقا أنت مهتم!

قال ذلك بعفوية ثم أكمل يتحدث

-حسنا، مثلاً حين أسمع الموسيقى..

قاطعه غمكين

- تلك الأصوات المزعجة التي أسمعها كل ليلة!

أكمل زغروس كلامه وكأنه لم يلاحظ مقاطعة جاره

- حين أسمع الموسيقى، في لحظة ما، في أقل من لحظة، وإذا بي أطير حراً حتى من نفسي، حينها أحس إنني عشت قصةً كاملة

-كيف؟

- ليس علينا فهم ذلك، بل علينا أن نعيشها

- كيف نعيش الحياة إذا لم نفهمها؟

- وكيف نعيش الحياة إذا فهمناها!

- تفضل أرجوك تحدث، أريد أن أرى من أنت، أريد أن أرى الحياة التي تتكلم عنها

تراجع زغروس بظهره إلى الوراء وبدأ يتحدث وهو يلوح بيديه ويتكلم بكل جسده

- إن اللحظة هي الحياة، أنا أعيش الحياة هكذا، في هذه اللحظة، في ما أشعر به وأفكر فيه، بصوت جسدي وروحي، إنني أرمي كل ما هو ميت من لحظتي الحالية، مثل غبار الأشياء التي مضت، وأفتح صدري لما هو آتٍ. كناجي أو كمغامر أو كحر.

توقف بصمتٍ قصير ثم لفظ بجدية مفرطة وباردة

- الذاكرة سجن

توقف مجدداً ثم أكمل يحلم

- الإنسان لا يمتلك إلا لحظته، إنني أشعر، بل أنغمس في بحر لحظتي كي أعيش هذه الحياة، كي أرى قاع الضوء والصدى، اللغز الذي يثير ويدهش كل حواسي ليست في الموسيقى ولا في اللحظة، إنما في الاتصال العجيب بينهما، حين تتوحدان في سبيل خلودك، حين تأتيك الارتعاشة العظيمة لتغرق في بحور الحكمة اللذيذة

بكامل رومنسيته الرنانة قام من مكانه متجهاً صوب النافذة التي تطل على الشارع، يظهر جلياً من مشيته ووقفته إنه حالم وسابح في بحور الخيال

- كما قلت أنت إننا وحيدون جداً، لكن ثمة حقاً من هو بقربنا، فينا، يحضننا، يحصننا، يدربنا للحياة، إن اللحظة

حين تنفجر في القلب تشعر بأنك تمتلك القدرة على أخذ نفسك على محمل الجد، أن ترى الحياة بنظرة فيها شيءٍ من الجدية، تشعر إنك سيد حياتك حتى قبل أن تكون سيد لحظتك، وسيد الزمن أو خالقه، تشعر إنك تشعر بكل شيء حولك حتى قبل أن تشعر بأن شعورك شعورٌ طاهر، هذا الشعور الذي يربطني بلحظتي شعورٌ موسيقي فني، موسيقى شاعرة، هذا الشعور ارتجاليات الجمال، تجليات الطبيعة، لكم أشعر بالحزن حين أعجز عن وصف هذه العلاقة بين اللحظة والإنسان.

توقف لبرهةٍ ثم أكمل يقول وهو يلوح بيديه تلويحاً لطيفاً

ـ ما الإنسان إن لم يكن لحظته؟ ألا ترى إن اللحظة جوهر الحياة وقيمة الإنسان وماهية الوجود ؟ ألا ترى إن الثبات ممكنٌ إن ارتبط الإنسان بلحظته واستطاع أن يمارس حلمه في باطن الحياة؟

أخذ نفساً من دخان سيجارته

ـأليس ممكناً أن يتلاشى كل هذا الحزن حين يفتح الإنسان عينه الثالثة على الفن الذي يمكن أن يمارسه مع اللحظة، ألن تقلع جذور الألم إذا قالت اللحظة للإنسان: هيا نرقص، هيا نتعمق في بحور الشعور، هيا نصبح بحراً، هيا نسبح في فضاء الحياة.

كان يتكلم مقترباً من غمكين وإذا به يراه نائماً

-جاري، جاري غمكين

-نعم أنا مستيقظ، لقد سمعتك

-ماذا كنت أقول؟

-ليس مهماً

نظر زغروس حوله ثم قال بصوت متسول ضعيف

-أين سأنام

- أه نعم، لكن لم تخبرني ماذا جرى لبيتك؟

عاد زاغروس إلى المكان بالذاكرة

- قال لي زميلي في العمل إن هناك شيئاً مريباً في المدينة، هذا الشيء يأخذ ويستولي على البيوت والأشخاص

-نعم لقد سمعت ذلك، مجرد إشاعات، لكن ما شأن بيتك بهذا الشيء؟

- أحسست إنه يسكن بيتي حين وصلت إلى الممر

- هل لديك أدلة؟، هل سمعت أو رأيت شيئاً ؟

- لا

صمت ثم قال

-نعم

نظر إليه غمكين نظرات فضولية وغاضبة بعض الشيء

- حسناً أجلس ريثما أذهب وأتفقد بيتك.

5

بالسجائر التي هي من دخان القلوب دخن زغروس الوقت والشرود، في غربةٍ تفتح أبوابها لجسده الذي يكاد يسقط مع التعب على صدر المكان، وغمكين الذي ذهب ضائعاً في غياهب المجهول ترك لزغروس فضولاً في تفقد المكان وتأمله، والآن هنا انفجر فيه شعورٍ عن تواجد أحد غيره في المنزل، فشرع يفتح الغرف واحدة واحدة، وحين سمع خشخشةً تأكد من صدق حدسه الطيب، أطلق نداءات فضولية سائلاً عن هوية الموجود لكن لا رد سمع، وحين رمى خطواته في المطبخ سمع وقوع شيءٍ ما

-لقد سمعت، أخرج

خرجت من خلف باب المطبخ فتاة حسناء بالغة الحسن، سوداء الشعر، طويلة، نحيلة، عليها ثوبٌ -ملون بألوان فاتحة- إلى فوق الركبة، وجهها حنطي مليء بالشامات السوداء التي تشكل جمالاً عجيباً، عيناها واسعتان وسع الاحتواء، وشفتاها لامعتان بأحمر الشفاه، خصرها مشدود كشجرة الرمان، حوضها كبير وثدياها مكورتان ممتلئتان، الحلمتان واقفتان وقوف الجبل، وعلى خديها مر الكحل مروراً متعرجاً ولايزال الأثر واضحاً وضوح القمر في وقت الحزن، ملامحها هادئة هدئوا دراميأ، كأنها كانت تبكي منذ الولادة، حركاتها وإيحاءاتها وإيماءاتها مشبعة بالمشاعر

الصارخة والكلام المكتوم، وثمة هلع في باطنها، هلعٌ مجنون، تكاد تنفجر، كأنها تريد فقط يداً وابتسامة كي تعيش سعيدة، براءتها أحجية وشرها طفولي، كلامها عفوي وصمتها قوي، سريعة الانفعال وشديدة التعلق، تريد ما تريد، تذهب أبعد من الجنون والعقل، لها لغزها، غرابتها، طفولتها، هواءها، تحب المساء والعتمة، تحب أن تخفي نفسها في نفسها حين تنكشف عليها الأضواء، إنها سرية، فتاة من السر، وما هو مكشوف منها متاهة، هي نفسها لا تدري ما في باطنها، تنظر إلى نفسها في المرأة ولكن إن كانت ترى نفسها أو لا فلا أحد يدري، حتى هي، ترى فقط ما ترغب به، تحس فقط ما يدخل في إطار جسدها من صوت ومعنى وضوء، ترى الحياة واقفة فوق الرغبة وقوف النسر فوق الجبل، فإن اختفت الرغبة تشوهت الحياة، أما عن جسدها فهي تقدسه، تطهره بالحركات والمعاني، تبوح به عن حزنها الشديد وولعها الغريب، تصلي به للذة والألم، ليست متأكدة من ألمها حين تتلذذ، وليست متأكدة من لذتها حين تتألم، يمتزج اللذة بالألم حين تضحك، ويمتزج الألم باللذة حين تبكي، تكاد لا تدري في بعض اللحظات إن كانت متألمة أم متلذذة، وثمة دائماً حزنٌ يعبث بملامحها، الحزن هو الأبدي الذي بنى عشه في صدرها، والأزلي الذي يعانق ويضغط على حضورها، إنه الصديق العدائي والعدو الصادق، ليست تتنظر شيئاً، لا ترى في الغد ما يثير الانتباه، وتأخذ من الماضي لحظتها وألمها ولذتها إن كانت اللحظة

الراهنة ليست مؤلمة أو لذيذة، هكذا فتاة لا يمكن أن تسكن في قوقعة، لا تفهم كيف يمكن المحافظة على جدرانها لمدة طويلة دون أن تحطمها، لا تقف عند المحطة أو المعنى لمدى طويلة، تكسر الأحداث إن بدت رتيبة ومملة، وكل الأحداث رتيبة ومملة، فهي تخسر صوتها حين تكون في مشهد ممل، عليها دائماً أن تركض بأعلى سرعة، إلى أين لا تدري فالمهم أن تركض، إذ ثمة دائماً شبحٌ تحت السرير أو تحت اللحظة، ودائماً تريد أن تبكي ودائماً تريد أن تضحك، ترى العالم يجب أن يشيد بالضحكات أو يغرق بالدمع، وترى نفسها إنها امرأة دون أن تفكر بكيفية ذلك، إنها امرأة دون أن تبحث عن نفسها، إنها امرأة حين تمارس لحظتها وتستعمل نفسها، فالمرأة هي التي تعيش، لا التي تبحث عن كيفية العيش، وإن سألناها كيف ستعيش فستضحك وبعد لحظات ستبكي، هكذا ستهرب من السؤال وهكذا ستجيب، حسها غريب، قد تبكي إن ثقبت جواربها وقد تضحك إن وقعت في كارثة، ولديها أيضاً علاقة مع السماء، تقول عن السماء(ليتني كنت مثلها أستطيع حمل كل هذه النجوم التعيسة وتحمل كل هذه النيازك الحادة)، تنظر كثيراً في السماء وكأنها تنظر إلى نفسها، كأنها تعكس ملامحها على الفضاء الشاسع، وتضحك حين ينزل المطر، المطر دمعها لكنه خرج من السماء، إذ عيونها لم تستطع ذرف هذه الدموع الكثيفة، تضحك وتقول (العالم سيغرق تحت دمعي، كم هذا مثير)، ولديها علاقة مع البحر، حين يكبر ضجيج

المدينة في رأسها تذهب إلى البحر، حين تفتقد حمامةً قد حطت على نافذتها لعدة أيام تذهب إلى البحر، حين تشتاق لأمها تذهب إلى البحر، حين تكره اشتياقها لأمها تذهب إلى البحر، حين تصبح الحياة ضيقة كثياب الطفولة تذهب إلى البحر، وتفكر دائما بالذهاب للبحر وتسأل دائما لماذا لا يأتي البحر إليها، لديها أيضاً فكرة عجيبة ترددها في سرها، وهي إنها كانت كائنة بحرية لكن والداها سرقاها من مملكة في قاع البحر، فالبحر حضن حياتها وصندوق أسرارها وكنز قلبها، وحين تنظر للبحر تظن إنها ترسم لوحةً في ذهنها أو تتخيل حبيباً أسطورياً لن يوجد إلا في تلك اللحظة، كما إنها تكره المكان، المكان الذي لا يتغير، الذي لا يغيرها، الذي لا يسقط ليتم تشيده كل ستة شهور، تفكر كثيراً أن على المكان أن يتحول دائماً إلى مكان أخر، يجب أن توجد تميز وغرابة واحتواء في كل مكان، لا يجب عليها البقاء في بيت واحد لمدة طويلة، تقول أن البيت يصبح سجناً إن تعودت عليه، أن المدينة تصبح قوقعة إن مرت بكل شوارعها وأماكنها لأكثر من مرة، أي إن قضيتها هي التكرار، التكرار الذي يسلب الحياة جماليتها وأصالتها، التكرار الذي يمنع الإنسان من أن يكتشف الحياة كأنها حياة لم تخرج من رحم الطبيعة إلا منذ لحظات، التكرار الذي يقتل الدهشة ويشوه المتعة وينشر عتمةً على الصور والمشاهد واللحظات، التكرار الذي يجعل منها امرأة لا تمتلك إلا الحزن لتعيش به، امرأةً ستفقد أعضائها وملامحها ورونقها وبهجتها وشخصيتها إن رأت

طفلها لم يكبر، إن وجدت وجهها في المرآة لم ينبثق منها الجمال، إن استعملت نفس السرير والستائر والأغطية والأطعمة والليالي والصباحات والأشخاص، إن لم يمت حبيبها قبل أن تفقد شعور الحب، إن لم تخرج الشمس من الغرب، إن لم يتغير لون بشرتها تحت الشمس، إن لم تمت وهي في صميم النشوة، إن لم تعش وهي في البحر والبحر فيها، إن لم تسقط قنبلة على المدينة، إن لم تخرج كائنات غريبة من تحت الأرض، إن لم تحدث حرب عالمية كلما خافت من صوت لم تفهمه، إن لم تجرب الحياة بكل تفاصيلها، هكذا هي، طفلة تتذوق الحياة واللحظة، مهلوسة تهرب من الأشباح والأحلام الكبيرة، طائشة تركض خلف ظلال البحر، قاتلة بريئة لديها من السم والعسل ما يكفيها لتفترس الأشياء والأحداث، سيدةٌ وعبدةٌ للألم واللذة، مستعجلة في أمور السماء والأرض، خائفة من السماء والأرض، منزعجة من السماء والأرض، متمردة على السماء والأرض، تظن نفسها السماء والأرض.

وقفت بيلان تنظر في وجه زغروس نظراتها الحادة وكأنها تريد أن تأكله أو فيها رغبة الالتهام ، تأملت ونظرت ملياً في تفاصيله، بنطاله الأسود، كنزته الرمادية، معطفه الأسود المخطط الطويل، ملامحه الهادئة، بشرته، شاماته، ذقنه التي لم يحلق منذ أسبوع، عيونه الناعسة، شعره الأسود المهمل.

ـ بكائك كان قاسياً على قلبي، كنت أسمعه من الممر

توقف عن الكلام مراقباً تحركاتها التي تعبر عن دهشتها أو ربما عن تعجبها الفضولي لكنه عاد يشد أوتار صوته

ـ أو على أبيك الذي خرج

تحركت شفاه بيلان تنفض عن ملامحها اللغز الذي خلقه زغروس

ـ سمعت أنفاسه تعبث بالهواء

انطبق صمتٌ بصمت الانجذاب، في نزوة أنثوية طائشة حلقت تقول

ـ صار كل هذا الهواء لي

رسمت ابتسامة شريرة على وجهها وبعد لحظات قليلة انفجرت تبكي بكاءً أثار استغرب زغروس

ـإنه حقير جداً، لقد كان يغتصبني منذ شهور

أحس زغروس بالفاجعة، اقترب منها ببطء أو قرب من المشهد شعوراً حميمياً حكيماً، تذوق بيده يدها، كانت لا تزال واقفة في مكانها وقوف القمر في السماء

ـ لم اعتقده هكذا، حتى إنه جعلني أشفق عليه

قال زغروس بشفقته الحارة النبيلة، أنهت البكاء بنظرةٍ لمع فيها وجه زغروس

- لا أريده أباً لي

- حسنا لا تقلقي، حتى أنا لم أحبه

عزفت أصابعه على خدها موسيقى تمتص الدمع

- من المرعب تصور إنسان لا يفهم الموسيقى

ضحكت بسخف

- وماذا يمكن أن نفهمه من الموسيقى ؟

تحرك زغروس في المكان معبراً بسرية عن تعجبه الأصيل من تغيراتها المزاجية الغريبة

- ما لا نستطيع أن نفهمه من الحياة

اتجهت بخطواتها البريئة نحو النافذة، ثم شردت مع السماء

- بعد أن ماتت أمي بعدة شهور دخل إلي في المساء وأنا نائمة، نزع ثيابي واقترب مني كثيراً، استيقظت خائفة ومصدومة حين احسست أن شيئاً ما بارداً يزحف بين فخذي، كان بارداً جداً وهو يلامس جلدي، حتى شعرت بقشعريرة في جسدي، قلت له وأنا انظر إلى وجهه الذي كانت الشهوة تسيطر على ملامحه (قضيبك بارد جداً يا أبي)، رد علي بصفعة على وجهي، لم يقل شيئاً، هل كان عليه أن يقنعني؟ قلت له (وجهي صار أحمراً يا أبي)، ابتسم حينها، مسك مؤخرتي وضغط عليها، كاد الدم ينفجر من بين أصابعه الخشنة، أصابعه التي أحبها حين تنغمس بين

شعري، شعرت بالألم، قلت له (لماذا أشعر بالألم يا أبي؟)، قال حينها جملته الأولى(الألم -يا أبنتي- جوهر الوجود)، حقاً أحسست بصدق مقولته، حتى فكرت فيها للحظات وهو كان قد أدخل قضيبه فيَّ، (لكن يا أبي الآن أنا لا أشعر بالألم)، رد علي متهكماً (حاولي يا أبنتي، دعي الألم يدخل في عظامك)، حاولت ذلك لكن لم أشعر به، حزنت لأنني لم أشعر بالألم حينها، كنت قد بدأت أشعر بشعورٍ غريب، لا استطيع أن أحدد أو أفهم كيف هو، حين أدخل كل قضيبه في فرجي كنت أشعر بحرارة جسده واحتراقه، أطلقت حينها هواءً كاد يتحول إلى نار في حلقي، حينها أخرجه وقذف منيه على بطني وصدري، تألمت جداً حتى كنت سأشتمه لكنني سألته بهدوء (لم فعلت ذلك؟) صفعني وخرج، حزنت حزناً شديداً في تلك الليلة.

هاج زغروس بخطواته، إذ لم تكشف ملامح القصة بفصاحة الحقيقة، ورغم ذلك تفوه قائلاً في محاولةٍ منه لفهم الفاجعة وما فيها من غرابة

- أنني أفسر عنفه بعذابه، لكن لا أستطيع استيعاب هذا الكم الهائل من المشاعر، هذا الحزن الهائل وهذه اللذة الغريبة

عادت تشتعل بكاءً على كفيها

-لم لا يشعر بي ؟

- إنه أناني

اقتربَ منها، شدها في عناقٍ لم يكتمل إذ راوغت تبعده كطفلةٍ تمزقت لعبتها، ثم تشاجرت تلفظ بشراسة

ـ أنا أحب أنانيته، تثيرني جداً

أكملت تنتحب بنشيجها وولعها

ـلكنه لا يشعر بي، ظننت أن موت أمي سيغير من طريقة معاملته لي، ظننته سيهتم لتفاصيل جسدي ولغة ملامحي وألوان ثوبي وأثاث غرفتي وزهور نافذتي وسمائي الفسيح لكنه أبٌ قبيح، قبيحٌ جداً لكني أحبه مثلما أرى قبحه، وهكذا يأتي إلي كل ليلة كالفيل بخرطومه البارد، يفعل بي ما يريد، يثيرني، يخرج الشمس على زهوري ثم يتركني حديقةً في مهب الريح، كل ليلة وأنا حائرة وحزينة، السماء لا تتسع لحيرتي والأرض لا تتسع لدموعي والحياة لا تتسع لي، أحياناً حين يأتي أبكي، أبكي بكاءً شديداً ويتبلل قضيبه بالدمع لكنه يدخله إلى داخلي مبللاً بالكلام المكتوم المالح، وأحياناً أبصق في وجهه ثم أندم فألعق له قضيبه وأنا أصرخ(أريد أن أتألم يا أبي)، يربطني جيداً بالحبال ثم يبدأ بصفعي على وجهي ومؤخرتي وفرجي، يجعل مني صرخة.

حك زغروس ذقنه متفكراً في المجازر والفجائع التي تحدث في هذا البيت مبتعداً كل البعد عن قصته الشخصية

ـإن بيتكم مكتظاَ لدرجة تمنع اللحظة عن التنفس

عبثت بالدمع على وجهها وفضت المسافة نحو زغروس

-من أنت ؟

لعقت عنقه

- أنا ما أعيشه الآن

- وماذا تعيش الآن ؟

سألت عابثة

- أنا ما لا تفهمه حواسك

اقتربت تمرر أصابعها الجائعة على صدره

- لقد تأخر سيد غمكين

- هو لا يعرف طريق قلبي فكيف سيعرف طريق المنزل

بعد أن تراجعت ناظرةً صوب السماء قالت ذلك

- سيد غمكين ألمه ثرثار

- ليتني أتألم مثله

- لكن حزنك فصيح وواسع

-ربما

صمتت قليلاً ثم أطرقت تكشف

- حسناً، لقد أعجبني تعبيرك لذلك علي أن أقول لك أن قصتي كاذبة

لم يظهر زغروس تعابير التعجب على وجهه

- ولديك أيضاً زيف

- لا أنا حقيقية

حل صمتٌ طويل بعد ذلك، كانت بيلان تداعب بأصابعها أوراق الزهور في النافذة وتداعب النجوم بأصابع الأحلام، بينما كان زغروس مغمض العينين يحاول التخلص من ضغط المكان على صدره

- حقاً تأخر أبي

عادت تقول ذلك بنبرةٍ فيها شيء من التودد والملل وقلة الصبر، بعد أن تنفس زغروس تنفس الراحة متحرراً من إرباكه وقلقه لفظ بصوته

-ربما أحس بلحظته فحلت عليه دهشة الزمن

- وما هذه؟

- الدهشة التي تنفجر في صدر الحياة حين يحس الإنسان بأن أعظم ما في الحياة لحظته، إحساسه بلحظته

- وكيف ذلك ؟

- حين يكسر الإنسان شراسة المكان ويسد تدفق الزمان ويفتح جسده وشعوره للهواء الحر، للموسيقى التي تسكن الصمت المطلق، للكون الخفيف المحلق في الفراغ، أن يصبح الإنسان هواءً أن يعيد للحظته المعنى وهو يبتعد ويخرج من قوقعة الوجود السالب .

توقف زغروس عن الكلام حين لاحظ تعابير وجهها ولامبالاتـها

- إن كانت قصتك كاذبة فلم تبكين؟ وكيف تمكنت من نسج هذه القصة؟ وماذا عن مشاعرك التي كانت ملتصقة بالصور المذكورة والكلمات؟

ردت بيلان بإنفعالٍ طفولي

- مجرد حزن

-عما؟

- لا أعلم حقاً، اشتقت للبحر وأبي لم يأت بعد

- كنتِ امرأة أخرى قبل قليل!

نظرت إليه بريبة وهلع وبعد هنيه صغيرة أمسكت بيده تجره خلفها ببطء، لم يفهم زغروس معاني اللحظة ولكنه لم يفتعل حركةً نقيض ما يجري

-دعنا نذهب إلى غرفتي

شعر زغروس بأصابعها وهي تتشابك مع أصابعه وتلامس يده شعور الغريق بالماء، ومن شعوره هذا -بكل العجب الحسي- أدرك بوجود امرأة تطرق أبواب لحظته أو حالة موسيقية جديدة، توقف لبرهةٍ متعجباً مرتبكاً إلا أنّها سحبته من يده مجددا كما تسحب الحياة يد الإنسان نحو الغد، مع وصولهما إلى غرفتها الصغيرة بدأت تتحدث بطفولية لطيفة

عن الأشياء الموجودة والخاصة بها، حوض السمك وفيه سمكة صفراء، القطة السوداء النائمة فوق سريرها، ضوء القمر وكيف يدخل إلى غرفتها، ضجيج المدينة، زجاج النافذة الذي يضع حدوداً بينها وبين العالم، ألوان أغطية السرير، لون الجدران البيضاء التي تفتح لها أبواب الذاكرة، السرير الخشبي ذو الأقدام الصغيرة، كتبها، ثيابها، عطورها ومكياجها، المرآة التي تتحدث معها عن نفسها وتقيس بها جمالها وجنونها وحزنها، الحجارة والصدف التي أخرجتها من البحر، السقف الأزرق، البلاط الأبيض المنقوش بمكعبات رمادية اللون، صندوق الهدايا الصغيرة والذكريات الكبيرة، الصندوق الفارغ -الموضوع تحت السرير- الذي يفتح حين تكون حزينة.

شعر زغروس بانزلاقه نحو عالم آخر، إذ بعيون أخرى نظر بها منذ لقائه بالفتاة، عاد إلى نفسه عودة ضرورية ووجد خيارين، طريقين، إما أن يخرج من هنا ولا يعود أو يبقى ليرى ملامحه الجديدة، إما أن يكون للحظته القديمة أو يصبح للحظته الجديدة، دار في ذهنه الكثير من الأسئلة المكتظة بالحيرة المستفزة، كان هذا الذي لا يعرف إن كانت الحياة انتحاراً أم الانتحار حياةً، أو ذاك الذي طرح عليه سؤال الوجود قبل أن يوجد، أو ذاك الذي طرح عليه سؤال الموت قبل أن يموت، في حيرةٍ شديدة لم يحدد حتى موقفه من الحركة أو السكون، لم يعرف إن كان ساكناً أم متحركاً، إن كان موجوداً أو ميتاً، إن كان ثقيلاً أم خفيفاً، إن كان

ضباباً أم فراغاً، إن كان يحس بلحظته هذه أم لا، وهذه النقطة هي التي احتار فيها كثيراً، طرح على نفسه سؤاله الطفولي أو ذاك السؤال الذي يطرح الإنسان على نفسه حين يخرج من رحم العدم أو رحم الأم، ذاك البكاء الذي يمكن التعبير عنه ب-ما هذه اللحظة؟- والذي يطرح مجدداً قبل الموت، بتلك الدهشة، الحيرة، القلق، العلع، طرح سؤاله وانتظر، لم يدري ماذا ينتظر أو لماذا عليه الانتظار، أو ما جدوى الانتظار، لم يكن ينتظر أو انتظر دون أن يختار هو الانتظار بمحض إرادته، وبعد هذا الانكشاف طرح سؤاله الثاني، أو طُرح عليه هذا السؤال، ماذا أريد؟ لكن الحيرة تفجرت وتوسعت أكثر في ذهنه، حقاً لم يدري ماذا يريد أو ماذا يمكن أن يرغب به الإنسان ويطمح إليه أكثر من لحظته والفناء يأكل كل شيء حوله وتحته، ماذا يريد من لحظته؟ وكيف يمكن أن تكون الرغبة وما هي الرغبة أيتها اللحظة؟ كيف يمكن أن يتغير الرابط الذي يجمع ويقرب بين الإنسان ولحظته، كيف يمكن أن تهتز الحياة تحت أقدام الزمن، وكيف يمكن أن تتغير اللغة التي يتكلم الإنسان بها مع نفسه، كيف يمكن أن يتحول الإنسان إلى آخر، وجد في الأخير إنه يرغب بمعرفة نفسه القديمة ولكنه في ذات الوقت يرغب بمعرفة نفسه الجديدة حتى يختار، أي عاد إلى نقطة البداية، فإما أن يخرج من هنا أو يبقى، بذلك شعر زغروس باحتقان ذاتي من مدى حيرته، من قسوة الغموض وحدة القلق، كيف يمكن أن يفقد شجاعته الطبيعة في ممر ما عليه إلا اختيار طريق

السير ببساطة شديدة، إن المضي في الحيرة يزيد من احتقان الإنسان على جهله وعلى معرفته بجهله، وإن كانت الشجاعة سلاح الكائن فالعتمة سلاح المكان، وتلك هي معضلة التحديد، ليس ثمة شجاعة، إنما مسؤولية تجاه الوجود، تجاه الإنسان الذي سيكونه بعد الاختيار وتجاه الإنسان الذي كانه قبل الاختيار، تجاه تلك المشاعر الكثيفة في ما قبل الاختيار وابعده، إن القدرة مضطربة وعاجزة عن التدخل في شؤون الحرية، عميقاً في القعر هي علاقة اللحظة بالمسؤولية، في الطرف الآخر ثمة العبث، ولا لقاء بين العبث واللحظة، فحين يأتي العبث تذهب اللحظة الخاصة، وحين تكون اللحظة يتوقف الكون في نقطة الصفر، وبين اللحظة العبثية واللحظة الخاصة ثمة اللحظة العادية، وهي لحظة ميتة، فارغة، ساكتة، لا تمد الإنسان بالحياة، تسرق نفسها من قلب الإنسان، أيتها اللحظة تكلمي، صاح زغروس على نفسه في نفسه، وكأنه يفتح للرغبة طريقها.

مع كل هذا التفكر المضحك وهذه الحيرة المقلقة كان واقفاً مكتوف اليدين مستنداً للجدار بحذر حكيم، بينما كانت بيلان تتحدث عن غرفتها تارةً وتتعجب من صمته وانشغاله تارةً أخرى، هكذا في قفزات أنثوية طفولية، حتى تعب صوتها فجلست على السرير تتفحصه وتتمعن في وجهه بنظراتها الهائجة الجامحة، استفسرت برقة ولطف

-ما بك؟

رغب بالتعبير عن حالته إلا إنه عجز عجز الأموات، قامت تمسك به وتأخذه نحو السرير، حينذاك تعالت أصوات صاخبة مجهولة من الخارج، صرخات، تمزقات، نداءات ملحوظة في النبرات، وكأن ثمة نيران تلتهب في الحناجر، ثم توقفت الأصوات فجأة، قالت بيلان متجنبةً الأصوات

ـ ما هذا الحزن الذي يمنعك عن الاقتراب ؟

ـ ربما غربة

شعرت بالألم الصارخ من صوته، راقت تقول بصوتٍ أنثوي ناعم نعومة الحرير

ـ اغتراب عما؟

ألقى نظرةً على نفسه من خارج صندوق النفس

ـ لا تقلقي مجرد حالة طوارئ نفسية مؤقتة

ـ ربما اشتقت للموسيقى

حمل نفسه بخوفٍ مهتز

ـ هل يمكنني الإنصراف ؟

كان يمعن في بلاط الغرفة بملامح فوضوية بين الخوف والقلق والرغبة بينما كانت بيلان تحاول كل جهدها تفسير تعابير ملامحه ، وبعد صمتٍ قصير قالت

ـ لا أدري

- أنا أيضاً لا أملك الدراية بذلك

- حسناً لا تذهب فأنا حزينة

- أنا أيضاً

- الحزن في كل مكان، في ثيابي، في ابتسامتي، في جسدي، في قلبي

- أنا هو حزني الآن

- لم؟

هلع يقول مكرراً

- هل يمكنني الانصراف

اقتربت منه قرباً فاضحاً رحيماً، لمست وجهه بأصابعها المنزلقة الخفيفة ثم قبلته قبلةً حارة على خده، وهاجت تهمس بشبق

- لا أظن ذلك.

نظر إليها نظرةً صاخبة، جائعة، تفتت حيرته واتزنت رغبته وتلاشى الضباب من داخله، لمع في عيونه زوبعة من المشاعر الجياشة، لاحظت بيلان شعلة نارٍ متقدة في عينيه فخفق قلبها شكاً غامضاً وجف حلقها جفافاً حاداً لكنها سيطرت على جسدها وكيانها وعاد إلى قلبها دمها المخفوق، وبعد برهةٍ اندفع مقترباً والعيون تواصل اللغة والصمت سيد عرش اللحظة، ثم وإذا به يلمس بشفاهه

شفهها، في لحظةٍ كسرت كل سقوف العدم والحزن، ومع ألتصاق شفاههما وامتزاج الماء بالماء تكونت قبلة بريئة صغيرة في المشهد واللحظة، هادئة هدوءً شهياً على باطنهما، أحست بلذةٍ ساخنة وبلهيبٍ يتجمع في كل موضعٍ من جسدها، اعصارٌ ما يدور في كيانها دورةً فوضوية صاعدة، أبتعد قليلاً يضبط تسارع نبضاته السريعة، يزن ضوء لحظته، يحرك الهواء في رئتيه، يفهم ويسمع صوت جسده، هي أيضاً ابتعدت متذوقةً طعم فمها ومحاولةً تبريد لهيب فرجها بإطلاق زفيرٍ طويل فوق رغبتها الجنسية، إلا أنه تجرأ مجدداً جرأة الحرب وقبّل بهدوءٍ قرب فمها ثم رسم قبلة أخرى على خدها ثم عينها اليسرى كان لها أيضاً قبلةٌ منعشة، يسترجع بذلك انتعاشة القبلة الأولى بثلاث قبلات متتالية، بينما كانت يدها تربت على صدره بطمأنينة فاضحة ويدها الأخرى تستند عليها بجسدها، بلذتها، بلحظتها في حرارةٍ توثق لهما لحظاتهما الممزوجة بدهشة المغامرة والمقامرة، اشتعلت شرارة الشهوة أكثر حتى ارتعشت وهو يمرر أصابعه على عنقها ببطء حتى وصل إلى ثديها الأيمن وكمشه بعنفٍ لطيف، تأوهت لذةً واخرجت لسانها المبلل فاستغل الفرصة ومصه بقوة لذيذة، أحست باقترابه اكثر حتى ألتصق بها كالتصاق الزمن بالحياة، ففتحت ساقيها دونما إرادة، أو بإرادة الرغبة، فتحاً مرحباً، وبحركة خاطفة اندفعت بهيجان تلمس قضيبه من فوق البنطال وتفركه شاعرةً بتحركه وانتصابه وكأنه في داخلها، وكأنها حصلت

على اكتشاف مبهر، وبينما كانت القبل تتوزع بمساوةٍ عادلة بينهما وفق حرارة النار، رفع ثوبها إلى البطن زاحفاً بأصابعه الذكورية فوقه وحول السرة حتى لمس فرجها المنتفخ الساخن، ثم فتح بين الشفرتين قليلاً وغمس إصبعه حتى دخل في فتحة مهبلها، ويكاد دمه ينفجر احتراقاً ودهشةً، ثم أخرجه سريعاً باحثاً عن البظر، عن كنزه وعن أصالة جسدها، وحين وجده يتدلى فوق الفتحة كتدلي الحقيقة فوق الحياة ضغط عليه وبدأ يحركه.

مندهشاً بانفتاح همس

- فرجك مبلل !

همست في أذنه مع ابتسامة خبيثة

- قضيبك الطويل يكاد ينفجر

وهو يطبع القبل بلهفةٍ على عنقها تحسس هيجانه عليها وقال

- جسدكِ موسيقى عجيبة

- وجسدك يتوهج

بعد أن سحب سحاب فستانها أدخل من تحت ذراعيها يديه بحذر وفتح شفرة لغزها، ففتحت عليه أبواب الفن العاري، جسدها الممشوق، اللحم الشهي الذي يلبسه جلدٌ طازج، النهدان المتكوران والمنتفخان، وعليهما عدة شاماتٍ

وحلمتين تصرخان، فشرع يبللهما بلسانه ولعابه ويمصهما وكأنه يمارس طقوس العري أسطورةً، وهي برغبةٍ هائجة فتحت زر بناطله ممسكةً بقضبيه تحركه ببطء، وبعدها، ولأكثر من خمس دقائق، بعد أن تذوق بلسانه بظرها الصائح، وتذوقت هي قضيبه المتقد الثرثار، ومع تأوهاتٍ مشتعلة وأهاتٍ حارة وتلذذٍ متواصل بينهما تعانق الأثنان في التحام بالقبل والجسد والحرارة، في فضاءٍ حر، على هذا السرير الصغير، تشجع وأدخل قضيبه المبلل في فرجها دخول النبض في الحياة، على أنغام تأوهاتها العالية وقبله الكبيرة، حتى كاد يقذف بمنيه حين كانت تقول صارخة

- أقذف بحرك فيَّ

إلا أنه كان يضغط بإصبعه تحت قضيبه حتى لا يصل إلى النهاية المرتفعة فوق الزمكان، وهكذا مرت عشر دقائق في تكوين البحر والسماء بينهما حتى ارتجف وأهتز جسد بيلان وعيناها تقفزان حين قذف بالماء فيها، في صيحةٍ موسيقية متوهجة، في عناقٍ يوشك على كسر أفاق اللحظة.

6

في هذا الكون الفسيح العجيب، في إحدى الكواكب الهائمة، في إحدى البيوت المغلقة، تحديداً في غرفة صغيرة وعلى سرير صغير، ثمة من وقع متعباً على جسد فتاة كانت معه في لحظة مزيجٍ شاعري، والفتاة قد وصلت إلى ذروتها وتعبت أيضاً، وبهذا التعب المشترك لم يفتح أحدهما عينيه، كان زغروس لايزال يسترد أنفاسه المتقطعة شارداً في سقف الغرفة وبيلان كانت تخرج جسدها الغريق من ولع نار الشهوة، وفي عريٍ مشترك كعري الطبيعة في الرؤية حين يتأمل الإنسان الجمال استلقى زغروس بجانبها فاتحاً ذراعه العاري لها، تكورت على صدره وذراعه بطفولةٍ نقية، ومر عليهما نصف ساعة من الصمت والاسترخاء، من الابتعاد من أجل الاقتراب، كان زغروس يشعر حينها بأشياء غريبة مبهمة تحدث في باطنه، أشياء لا يمكن للغة الوصول إليها، معاني لا تخرج من جحرها، وكأن الكلام ليس هو المعبر الوحيد وثمة وسيلة أخرى للتعبير أو للوصول، لكن ما هي؟ لم يحرك زغروس صمته المتمدد على قلبه، ولا حتى بإيحاء بسيط، كان كمن يركض خلف الفراشات في الحقول، يركض فقط ليركض، أو كمن وجد جوهر ذاته ولايزال في دهشته العظيمة تلك، ما هذه المشاعر الغريبة الخارجة من خلجات متفجرة، شكك ثم تثبت، نظر بعيون ذاته في ما يجري في باطنه ثم أغمضها، ما هذه اللحظة؟ وأخيراً أستعاد جزءً من حقيقته بهذا السؤال الفضولي الأبدي، إن هذه اللحظة ليست

ككل اللحظات التي مر بها، إنها حقيقية حقيقةً متوهجة، ومبهمة إبهاماً مثيراً، وخطيرة خطورةً غريبة، وهائلة هول الإعصار، وخفيفة خفة الجمال، وملغزة تلغيزاً يعجز عليها مفاتيح الإنسان، إنها مفارقة عجيبة، ضاربة، معجزة فريدة، وكأنها اللحظة التي يجب على الإنسان أن يعيش من أجلها، من أجل الوصول إليها، من أجل الحصول عليها حصولاً عنيفاً، بتلك المبالغة المتوحشة، إنها الجوهرة الوحيدة في الأرض، الكوكب الوحيد في الكون، الكون المدهش، إنها الكون الذي لا يفهم ولن يفهم ابداً، حتى لو وجد كائنٌ بعقلٍ جبار وبعمرٍ أبديٍ، إنه الأزل الذي أنفجر ولم ينفجر، بداية التمدد، أو بداية الزمن، إنها اللحظة التي كونت الزمن، اللحظة التي تكون الزمن من أجلها، اللحظة التي تكون الزمن منها، فيها علم الجمال، فيها الفن كله، الهندسة العظيمة، التكوين الدقيق، الصناعة العالية، الصياغة المضبوطة، الخلق الحقيقي، أحاطت بكينونته لذة الاكتشاف والغرق اللذيذ، لم يقاوم، دونما حركة، لم يبحث عن ثورة، كان هو الثورة في اكتشافه، إن كانت الثورة حركة، هجوم، هيجان، رغبة بالتغيير، أو نزوة، حماقة، طيش، غباء، فكانت كينونته أعلى من ذلك وأبعد، في مرحلة اكتشاف موهبة الحضور، أن يصبح حاضراً، متمرداً على جدران الغياب، قادراً على فتح عيونه، قادراً على القراءة، أبعد مما هو مكتوب ومعاش، مكتشفاً بذلك كنوز الضوء، أو مستمراً في النظر إلى اللحظة، أما بيلان فكانت هادئة مع ذاتها،

وصلت إلى نقطة هدوءٍ وسكينة لم تصل إليها سابقاً، لم تمتلك الرغبة في إثارة الشغب أو المشاكسة، كانت مطمئنة، تشعر بالهواء على جلدها، تشعر بصدره وكأنه المكان الوحيد في المكان، القعر الذي لا صدى فيه، كانت تشعر بأنها في البحر كله أو هي البحر كله، تسبح وكأنها تطير، تطير في السماء دون ريحٍ قاسية وكأنها تسبح، دون عواصف مفاجأة، دون غيومٍ تمطر دمعاً وملحاً، دون شبحٍ يسكن تحت السرير، دون ملل مزعج، في لحظاتٍ لو تكررت لن تفقد قيمتها أو هي القيمة الآن، كأنها عادت إلى أصلها، كائن مائي في مملكة تحت الماء

-أشعر بالوجود، أيمكن، لقد صرت موجوداً

شهق زغروس بذلك، ضحكت بيلان ضحكةً مبللة بالخجل

- وأين كنت قبل ذلك ؟

- في العدم، ربما، في بعد أخر، في ما لم ألمس جدرانه

- وأنت رأيتني عارية، حرة، طفلة، نظرت إلى مرآتي الحقيقية

- عريك هائل البيان، جسدك كون آخر

أكمل ببهجة صوته

ـ دخلت كونك ووجدتني فيه، عندي، أكنت أبحث عنه طيلة حياتي؟ أنا أنبض بنارٍ قوية، أنا أنبض بالشمس، هذه اللحظات تنفجر نوراً في كينونتي

تشبثت بصدره بقوة

ـ وأنا أشعر بالهدوء، بالطمأنينة، بالبحر تماماً

ـلا أريد أن أشبع منك، أنت اللحظة، أنت الموسيقى التي علي أن أسمعها وأفرط في سماعها وأموت بها

ابتسمت قائلة

ـ أنت منتشي عزيزي، لا تبالغ في الذهاب نحو الريح

ـ أنا النشوة المقدسة التي انبلجت في رحم النبوءة

ـ أصابعك وهي تتحرك فوق ظهري ترسم ابتسامتي

ضحك ضحكته الأولى

ـ أصابعي صارت تعيش، أنا أتنفس جسدك يا امرأة، أنا أتنفس الهواء الأصيل، أنا لدي رئتان، هنا

ـ ولديك صدر

ـ ولدي أنا

عاد يقول بعد لحظات

ـكأنني خالد أو صرت، كأن الأبدية فتحت لي أبوابها، كأن الحياة انفجار الضوء في الكيان، كأن من ممكن أن نكون

أبطالاً دون حروب، أن نمتلك قصص تحكى على نور الشموع والأيام، أن نعيش الحقيقة، أن نمتزج ببعضنا، هكذا دون حرقٍ وحذر، أن نتعانق في محاربة المجهول، أو نموت بكامل الحياة

سقطت بيلان في متاهتها، وخزة غرست في قلبها، لفظت تتأوه

ـ كنت دائما متأكدة من أن اليد هي الحياة، عشت أحزاناً ضخمة، بكيت أحزاناً كبيرة، حياتي جافة دائماً حين انظر إليها.

بحذرٍ ألقى زغروس نظرته التي لمع فيها شكاً حاداً

ـوالآن؟

ـ الآن يدك

سقط زغروس في غموض اللحظة، صمتت بيلان صمتاً عنيفاً ثم تلعثمت تائهة

ـ يدك لا أدري، حقاً لا أدري، أنا مشوشة

سحب يده بخيبة هادئة من فوق ظهرها، تشبثت به كالقطة

ـ لا، لا تفعلها

أعادها مجددا وعانقها عناقاً لطيفاً، محاولةً في حل عقدة اللحظة المتخمة بالغموض النفسي المفتعل، همس يتشبث

ـ حسنا، لنا لحظتنا

كان يرى في جسدها الثبات العاطفي والحقيقة الفنية، كون حديث، لحظة خلاقة، طفرة عجيبة، عري شهي، طهارة جمالية، عري حقيقي من زيف الحياة، فناء لكل ما هو مهدوم في الباطن، تلاشي للضباب المتطفل، وصول إلى السعادة أو تأكد من وجود سعادة في الحياة أو في اللحظة بين العالم الخارجي وداخلي، اكتشاف للآخر عكس ما هو متوقع، بتلك الدهشة، عكس الآخر الذي كان ينظر إليه أو يكتشف طيلة الوقت، لم يكن يرى فيها كائناً عليه أن يبتعد، أن يضع مسافةً للوقاية من الاشمئزاز، بل كان يرى فيها جزءً من الذات، آخراً موجوداً في كينونته، داخل خصوصيته، مرآةً تعكسه، ذهناً يمكن أن يفهمه، أن يفهمه ببساطة ودون تعقيد، يا الفرحة الإنسان حين يفهمه إنسان آخر، يا لفرحته حين يساعده آخر في رفع تعبه الوجودي عنه، في معانقته عناقاً أبدياً في اللحظة، في الضحك معه، بتلك النبرة النقية من الشوائب، في وضع الزهور على قبره حين يموت، في الحزن معه، وفي الحزن عليه حين يحزن أو يموت، في الاهتمام به كطفل، كل رجل في داخله طفل كما كل مرأة في داخلها طفلة، من يصل إليهما يحصل على قلب الآخر، هكذا ببساطة بالغة البساطة، فالطفولة جوهر الإنسان وطريق نحو السعادة، لم يعش أحدٌ حياته بعد أن قتل أو قُتلت طفولته، لم يعش أحدٌ حياته وهو ينسى كيف كان يضحك، دون الضحك يصبح الإنسان آلة، والضحك في جوهره أنبل

طريقة للتواصل الخلاق، أنبل من الحب وأقوى من الدراما والمغامرة، كان يريد أن يضحك بقوة موسيقية، دون أن يجد أسباباً فكاهية، أن يسطو على عتمة العالم بضحكة كأنه يرغب بتغيير طريقة خروج الإنسان من رحم أمه، أن يضحك الطفل وهو ينجو بأعجوبة من اللاشيء الكثيف خلف الحياة، فالضحك صيحة في وجه السرعة، صفعة للمجهول، رغبة بالبقاء على قيد الحياة، قتلٌ رحيم للموت، الذي يضحك كالذي يثور، يذهب أبعد من النقد بلمح البصر، يفكك الأبنية المتهالكة، يفتح الطريق لنهر الحياة كي يجري دون مراقبة وبلا معاقبة، كان يرى جسدها، يرى من خلال جسدها إلى الحياة، كيف يمكن أن تكون الحياة من منظور عريها، جلدها، أصابعها، شاماتها، نهديها، حلمتها، فرجها، مساماتها، التضاريس، الانحناءات، التقوسات، التدرجات، الأدلة على وجود الأعضاء خلف الجلد، دمها، عظامها البارزة والمختبئة، لحمها، كل شيء فيها، كل الألغاز والدراما والتراجيديا في جسد امرأة، امرأة من حقيقة، امرأة لديها نبض، تعيش، الحياة التي تتكون منها، وهذا ما يثيره كثيراً، الحياة التي تتغلغل وتتسرب، تتلاشى وتتكون، تجتمع وتتنافر، تتكلم وتشعر وتفكر منها، أي كلها، الكلي الموجود فيها، هي كما هي تماماً، هي حين ينظر إليها ينكشف أمامه جمالٌ يتقمص الإنسان ويهزه هزةً عنيفة الفن، يغيره تغيراً جذرياً، ورائحتها أيضاً صندوقٌ مغلق فيه كل الأسرار، كان يستنشق عنقها، شعرها، صدرها، سرتها، بين الدقيقة

والأخرى، يستنشق بعنف، يريد أن يشبع ولا يشبع، فقط يستنشق، محاولاً نسيان قضية الإشباع المزعجة، كمحكوم عليه بالإعدام يحاول نسيان النهاية ليعض ويغرس أنيابه في لحظاته الحاضرة الأخيرة، يريد أن يكون حاضراً
بقوة، بمخالب رغبته وشراسته الجمالية، أن يتجلى حضوره ويتعالى فوق الحضور، فما الحضور إلا غرس شجرة الإنسان في الطبيعة، في الزمن، في المكان، تحايل على القدر والزمن والمكان، احتلال المجهول، تفجير الرغبة في الباطن، هكذا تتجلى له عظمة رائحتها في اللحظة، وكان لديه رغبةٌ سرية في تمديد كل الزمن في هذه اللحظات، أن يتوقف الزمن هنا، دون ارتجاج، ألا تتحرك اللحظات عن مسارها ومسطحها، أن تتوقف الحياة قرب السرير مبتسمة وينتحب الموت في زاوية الغرفة، ولا يولد أي شيء جديد في أي شيء موجود في الغرفة، أن يكون كل شيء كما هو، المشهد بأكمله، كل الأثاث والألوان والروائح والأشكال الموجودة في الغرفة، وهي كما هي وهو كما هو، بذلك يرغب بالتكرار، تكرار كل ما يحدث الآن، تكراراً أبدياً، التكرار الذي هو صميم الجدوى، أن يصبح كل شيء له معنى لا يتلاشى ابداً، إطلاق العنان للطف الموجود في المشهد، إعلان حدود حول الغرفة ووضعها أعلى من فردوس، فهم لغة الفردوس، بسط السيطرة على أفاق الحياة بالتكرار الدائم، القطة التي قفزت من على السرير بعد أن شاهدت ممارستهم للجنس عليها أن تقفز إلى الأبد، بطريقة

ذاتها وبلحظة ذاتها، ومنتصف السرير، المكان الذي تبلل بمائهما عليه أن يكون مبلولاً إلى الأبد، صرير السرير حين كان يدخل قضيبه في فرجها يجب أن لا يتوقف عنه الصدى، أن يأخذ الصدى حقوقه المشروعة في كل الوجود، انعكاس الألوان من الضوء الذي يركض من المصباح نحو الأشياء أن يستمر سباق الضوء وانكشاف الألوان في الغرفة، الصيحة المشتركة حين وصلا إلى ذروة الشهوة والنشوة عليها أن تتردد في كل أركان الكون، في قلب المادة، اللامرئي في الأشياء له أيضاً حقٌ في الديمومة والسيرورة، المشاعر المختلطة، الكلمات التي نطقت والتي لم تخرج من كيانهما، المعاني المكشوفة والمحجوبة، الدلالات، الإيحاءات، الحركات، الابتسامات، اللغز الذي لا يفهم لا يجب أن يفهم أبداً وهذا هو جوهر الجدوى، أي بقانون التكرار تغدو الحياة حياةً واللحظة حضوريةً في الصميم.

في تبلور كل ذلك أدرك أن مذاق وجوده اختلف، وجوده بحد ذاته اختلف، لم يقل أنه صار موجوداً بطريقة اعتباطية، بل كان مدركاً كل الإدراك أن حواسه تعمل على تكوين العالم في رؤيته، هو يشم رائحتها إذاً هو صار موجوداً، في هذا الاتحاد المركب بين رائحتها وحاسته يغدو الوجود وجوداً ويغدو هو موجوداً، موجوداً في اللحظة بكامل حواسه ومشاعره وانطباعاته، كما أن العيون صار لديها قيمة أكبر من ذي قبل، فالجمال ليس مسموعاً فقط، ليست الموسيقى وحدها التي تصنع ارتباطات جمالية بين الإنسان والطبيعة،

بل العيون أيضاً نافذة على الجمال، عريها الآن دليلٌ على تجلي الجمال وبصره احتواء لغواية الفن في الجسد، وبهذه الطريقة أدرك أيضاً أن الآخر مشاركٌ ومؤثرٌ ومساهمٌ في وجوده في اللحظة، عن طريق وجوده في اللحظة معه، لكنه ماذا لو لم يوجد الآخر، أي ماذا لو كان وجود الآخر عن طريق غيابه، أن يكون موجوداً غياباً؟ تخيل وجوده في الغرفة دونها، تخيل للحظةٍ فقط لكنه سرعان ما ترك الصورة تذهب في حال سبيلها.

وبعد سيره الطويل بين الأفكار والأحلام عاد يستفسر عن قضية اليد التي كانت تشغل بال بيلان لم يعرف زغروس ما موقفه تجاه يده، أو ما موقفه تجاه مشاعرها ورؤيتها ليده، حتى إنه ذهب أبعد ليرى ماذا تظن هي من ظنونه تجاه يده، ما المعنى من الانشغال في اليد، وجد أن رؤية بيلان تجاه اليد مضطربة ومتناقضة جداً، فوضى شعورية، إنها تريدها ولا تريدها في الوقت ذاته، تحبها وتكرهها، ترى في اليد دوامة من الانعكاسات، من الممكنات والمتخيلات، من المستحيلات و الحقوق، من المشاعر الصاعدة والنازلة، رأى أنها تظن في يده البحر المتموج والأرض الجافة، الحياة والموت معاً، كيف يمكن أن يتعانق الموت والحياة في مكان واحد، في رغبة واحدة، أن يشعر الإنسان للحظةٍ إنه يرغب بالموت والحياة معاً، أن يتلذذ ويتألم من شيء واحد، من موقف واحد، من إنسان واحد، غمرته فجأةً شعورٌ بالضيق والاختناق حين وجد أنها لا تفتح صدرها للحاضر، أو ترى

في الحاضر ماضٍ ثقيل، تاريخاً طويلاً من الهزائم والظلال والمرايا، من الأصوات والوجوه الميتة الحاضرة في اللحظة، إنها تملئ اللحظة بالعدم، والضوء بالعتمة، إنها تدري جيداً إنها ستموت بطريق سيئة ولا تستطيع نسيان ذلك، أو بتذكرها الدائم تحاول الوصول إلى مشهدها الأخير، الموت صديقها الدائم في الذات، تلاطفه كلما عادت إلى ذاتها، كلما أخرجت نفسها من الأشكال والروائح والأصوات، كلما وضع أمامها مرآتها الحقيقية، كأنها بذلك لا تثق فيه وذلك ما يهز جبل زغروس، ولا تفتح أبواب غرفتها لجمال الآخر، ولا تنظر إليه كما هو، وجهه ليس واضحاً وذلك ما يجفف بحور المرأة، هو ليس حقيقياً، كل ما حدث ليس حقيقياً، ثمة زيفٌ أو خديعة، أو كأنها كانت تريد أن تذهب إلى نفسها فقط، إلى رغبتها فقط، وهو ليس إلا وسيلة لذلك، مجرد سلالم إلى مستقبلها، إلى لحظاتها القادمة، أو إلى مشاعرها التي كانت تنتظر فتح أبواب الخروج من الباطن، أو كانت تجر الأحداث في انتظار غمكين، أي زغروس هو لعبة انتظار، وسيلة نجاة من شراسة الغياب، أي أن غياب أبيها هو كل ما تفكر فيه الآن، الأب هو الجنة، الفردوس الحقيقي، عاد يفكر زغروس في قصتها، أحقاً غمكين يغتصب أبنته؟ لكن هي سردت القصة بطريقة عجيبة، بمشاعر متناقضة بين الرفض والقبول، بين النفور والود، لكن لو كانت مجرد كذبة فلما سردته؟ ولم كانت تبكي؟ ولم كانت تختبئ ومما؟ ولم أخذته إلى غرفتها؟ ماذا تريد هذه؟

انزعج زغروس كثيراً، بل كاد يختنق وهو يلهث خلف الأسئلة، وإذا بها تهمس في أذنه فجأة

- أنت لطيف

لكنها بعد ذلك أضافت بعنف

- لم لا ينتهي هذا الحزن ؟

تنهد زغروس شاعراً بها أو كانه هي

- اللحظة، الموسيقى، الحب، على كل إنسان أن يبحث عن علاجه الخاص

- علاجي البحر، أريد أن أغرق في البحر ويتحول جسدي إلى ماء وهو ينزل إلى القاع، كم ستفرح بي الأسماك الصغيرة البائسة وهي تطوف حول جثة مبللة بالحزن، ثم ستذهب كل سمكة إلى عائلتها لتخبرهم باكتشافها العجيب وهي تعيد تخيل المشهد

ضحكت وهي تقول متلعثمة بين الحزن والفرح

-تخيل كم ستضحك الأسماك الكبيرة من طفولتهم

- أنت طفلة لذيذة

سخرت بيلان بحزن صادم

- طفلة بعواطف ضخمة

- طفلة لا أستطيع فهمها

- ولن تستطيع

- أليس لديك شيءٌ تقولينه لي

نظرت إليه بخبث

- لا أظن أن ثمة ما يجب أن يقال، لا هنا ولا في أي مكان أخر

- إذا من يتحدث من خلالك ؟

قالت وهي تشدد اللفظ

- الحزن

- ما هو الحزن؟

- أقدامي الباردة، سقف غرفتي، سريري المتعب، وجهك الذي يقول كل شيء ولا يقول شيء، يدك

بانفعال طفولي قفز زغروس

- ما بها يدي ؟

أمسكت بقضيبه بلطف وبدأت تلعب به ثم تفوهت تنطق بهيجانٍ عصبي

- ليتني أدري كيف هي حياتي، إنها لا تستكين، أنا عاجزة عن سرد القصص التي تطعن صوتي بسكاكينها، لا أدري كيف يمكن لي أن أضيع هكذا في دوامات لا متناهية، حتى صرت لا أرى، كل شيء متحرك، سوداوي، مبهم، ضبابي،

لا تقف الشجرة عند البحر لتقول للموج قف، إنها منكسرة وجافة وعاجزة أمام الرياح القوية، لكن من المضحك إنها لا تدري لم عليها أن تقول للموج شيئاً، كل شيء يذهب إلى حيث لا أدري، ليس لي يدٌ في ذلك، كأنني لست أنا، أنا مضطربة، مشوشة، إنني اسقط في الرمال المتحركة كل يوم، أسمع أصواتاً كثيرة في داخلي، صوت الدمع، صوت البحر، صوت الجسد، صوت المكان، صوتٌ أركض خلفه لأنسى كل الأصوات، الريح حاقدة علي، السماء تكرهني، الأرض تهتز، ليس ثمة نجمة تمد لي حبلاً لا تشبث به، ليس ثمة هواءٌ يستنشق بحرية، أفتقد حياةً دون ألم، لكن لم أعش هذه الحياة لأفتقدها، أنا أفتقدها مع أن علاقتي بها ليست علاقة فقدان، أنا أرغب والرغبة لا ترغب بي، أنا أتألم، لكن الألم يشعرني باللذة، أه فعلاً لا أعلم ماذا أقول الآن، ستقول هذه مجنونة، ربما أكون كذلك، الجنون مفرح وحر.

شعر زغروس بصدق كلماتها وتعاسة نبرة صوتها لكنه لم ينطق بأكثر من

ـ إذا؟

ضغطت على رأس قضيبه بأصابعها الصغيرة وقالت ببرودة واستفزاز

ـ لا تفتح فمك هكذا، لا تبحث فيَّ عن شيء، لست جاهزة لأكون مع أي أحد، لا هنا ولا في أي مكان أخر. لست جاهزة لابتسم بفصاحة وأمد لك قلبي بطلاقة، أنا عابرة كورقة

طارت وسقطت على الأرض أمام عيون الريح والخريف، لكنك تشعرني بي، أترى ذلك؟

- أرى أنك تحتاجين إلى صمتٍ طويل

قال ذلك ساحباً عضوه من بين أناملها، فردت منزعجة غارقة

- لا، لا تقل ذلك، الصمت مخيف، لا أريد رؤية شيء، أريد أن أقول إن الصمت غير ممكن ودون أن أقول شيئاً ذات أهمية وجدوى.

ثم أكملت تقول بملامح حالمة

-أريد أن أثرثر وأخلق القصص وأبكي وأضحك دون أن أهتم في ما أقوله، أريد أن أكون بعيدة كل البعد عن الصمت

- لكن الصمت يحرر الإنسان من الغبار والعبث

- لا تدعي ذلك، ليس ثمة ما يجب التحرر منه أكثر من الصمت الصاخب، ذاك الصخب الذي يقيد قدماي ويفلك رأسي كالإعصار، أنظر، كم أن غرفتي سعيدة وهي تسمعني، أنظر إلى قطتي وهي تستمتع بوجودي، سأثرثر، سأكون موجودة .

- أنت هكذا تصنعين من نفسك امرأة قاتلة بحق ذاتها

أحست ببرودة الحديث، قالت وهي تتصنع ملامح الحزن

- ألا ترى الحزن وهو يتقطر من جلدي كالعرق

ـ أرى ذلك، أرى جيداً كيف يتكون الحزن في كيانك

ضحكت تقول

ـ مضحك أنت، ألعوبة ممتعة

ـ اللعبة فخٌ للهروب من الفراغ

ـ أتقصد أنني فارغة؟

وجد زغروس أنه قد تقدم كثيراً فسحب نفسه من الصراع بدبلوماسية شاعرية

ـ أقصد أن الفراغ يهجم حين يتحول الصمت إلى شبح

ـ حسناً، إذاً أسمع الحقيقة، هذا الصمت الذي تتحدث عنه هو المسؤول عن موت أمي، كنت حزينة، حزينة جداً، ومع ذلك لم أفعل شيئاً، فقط جلست في زاوية غرفتي، لا أكثر من ذلك، فقط لعدة دقائق، لا أكثر من ذلك..

ـثم؟

ـ ثم رأيت دمها على أرض المطبخ، كان لونه أحمراً قاتماً، وعنقها كان لايزال يضخ الدم في المكان، أتذكر إنه كان في الصيف، ذاك الصيف الحارق، ثم رأيت قطتي تمشي على الدم وتعود إلى سريري، أتدري ماذا يعني أن يوجد دمٌ على سرير امرأة؟ مع ذلك لم أفعل شيئاً، فقط عدت وجلست في زاوية غرفتي، لا أكثر من ذلك، وبعد أن تبلل سريري بالدم

أشارت بيدها إلى الطرف الأيمن من السرير

-هنا، في هذا المكان، لازالت أرى الدم وهو يتحرك ويتكون كبقع، حسناً، وبعد ذلك بدقائق وصل أبي، سمعت فجأةً صرخةً مزعجة ثم بدأ يبكي كالطفل، نعم رأيته يبكي ويتبلل وجهه ويغرقني بالحزن، لم كان عليه أن يبكي وأنا التي كنت أنتظره صامتة، كنت صامتة من أجله، من أجل وجهه الوسيم، كيف يمكن خيانة امرأة صامتة! لكن لم يعد مهماً ذلك لهذه المرأة فهي لم تعد صامتة ولن تصمت.

- لم لم تنظري إلى الدم ؟

قالت باستغراب

- نظرت

- وهو يمتزج بدمع أبيك ؟

صمتت تنظر إليه بملامح تعبر عن برودة قاتلة فقال زغروس بثقة

-صمتك ليس صمتاً

- ويدك ليس بيد

قالت ذلك ووضعت يدها على فمها بندم ثم ضحكت ضحكتها الكبيرة

-لقد كذبت عليك مجدداً عزيزي، قصتي كذبة صغيرة

خدعتها أثارت انزعاجا وسأماً في قلب زغروس

-حسنا، اللحظات ستمضي فلا تقلقي

-لست قلقة

قال زغروس في نفسه

- لكن على القلق أن يدخل فيك

إلا أنه خبئ كلامه و قال

- الصدق قيمة اللحظة، لا توجد اللحظة دون صدق

- توجد اللحظة مع الضحك واللعب

- توجد في زاوية الحياة لا في منتصفه

تأوهت

- يوجد بكاء مرير للسماء ويوجد غرقى في غرف الحياة الضيقة

- وجسدك؟

- جسدي حر وغريق، طائش وساكن، هارب وباحث

- جسدك كينونتكِ ولحظتكِ ولحظتي، إلا أن ثمة خديعة عنيفة، وثمة غواية عجيبة تنكشف وتنحجب، لست ثابتاً على اللحظة، لست فرحاً، يوجد قلقٌ سري في الأشياء، أراه الآن وهو يغزو عوالم اللحظة وأفلاك النعمة وفراديس الموسيقى

تقمصت قائلة

- أفتح صدرك عزيزي

- كيف؟

استلقت بجانبه وفتحت ذراعيها

- هكذا أستنشق الهواء الطلق ودع غرفتي تأخذنا، هيا أفعل مثلي

- والصدق ؟

ضحكت

- كفاك رهبةً، الأمر ليس مرعباً، ما عليك إلا أن تغمض عينيك وتغلق الذاكرة، حتى ذاكرة اللحظة، نعم هكذا..

قلدها دون ارتباك، قال بعد تنفسٍ عميق

- لاشيء

- لاشيء؟

- لا أشعر أن ثمة شيء، هكذا، أن لا يوجد شيء يمكن الإمساك به وتفسيره، فضاء هائل مفتوح الأطراف، لا جهات مقصودة، لا ضرورة للبوصلة والتحديد، شاسعة من المستحيل في اللحظة، أماكن لا يمكن الدخول إليها، أزمنة غير زمنية، غير موجودة في الزمن الطبيعي، وأنا أيضاً، أنا وكل ما بي غير الذي أعرفه، لا يمتلك أصغر صفة عني ولا حتى يكاد يشبهني بشيء، كأنني لست أنا الذي أتحدث عنه، كأن الأبواب التي فتحت لا تفضي إلى حس إنساني، لا تؤدي

إلى أي طريق شخصي في الحياة، ليس ضيقاً هذا اللاشيء المهيب، واسع جداً للتعبير عنه وإخضاعه ورغم ذلك غير مباشر، ليس لديه خاصية الوصول إليه، أنا أقول شيئاً واحداً ولكن بعدة طرق، أنا أقول لاشيء، ليست بصيرة إنما عكس ذلك تماماً، لا يوجد شيء قابل للرؤية في ذلك.

ـ أظن هذه هي الحالة

فتحت عيونها تقول ببرودة

ـ الحزن أصيل، لا أكاد ألمس قعر اللحظة دون حزن

ـ شعرت بأنني دون جذور، والمنفى أرضٌ كبيرة وقاحلة، أرضٌ لا أستطيع أن أمسك بيدي فيها، وأضحك على نفسي حين أقول أن لي يد، هل علي الاعتراف بذلك وأمشي كالأعمى، عمى اليد مأساة لحظتي.

ـ كان ذالك مدفوناً في ترابك وصرت الآن تبصر عماك

أخرج من جيب بنطاله سيجارةً وأشعلها ثم عاد يسترخي بجانبها

ـ أن تبصر عماك فذاك الجنون بعينه

طرق الباب فجأة

-إنه أبي

قالت بيلان ذلك، أتجه زغروس نحو الباب وهو لايزال عارياً، نظر من ثقب الباب فلم يرى أحداً، ففتحه ثم نظر نحو

الأعلى والأسفل فلم يجد أي بشري، عاد إلى بيلان، كانت تنظر إليه بقلق فضولي

- لم أنت هنا ؟

فكر قليلاً وفي كل جوانب سؤالها

- لا أدري كيف أفهم سؤالك، كل ما أفهمه أن سؤالك خطير وعنيف

ابتسمت بيلان ساخرةً من رده، تشوش ذهن زغروس وكاد ينسى نفسه، لكنه أنغمس في ذكرياته كلها، يقلبها ويشعل النار تحتها، تذكر انتصاراته وهزائمه، أحزانه وأفراحه كأي إنسان، كل الذين عبروا في حياته وتركوا عليه بصمات، والذين عبروا في نفسه وتركوا له مشاعر خشنة ومبللة، اللحظات والمشاهد التي أستطاع الوصول إليها حسب حالته في الحاضر، والنهايات، كل النهايات، شرع يجرد عناصر النهايات كما يشرح العلماء الجثث، لمعت له أقوال، ولمعت من تلك اللحظات ردأت نظرٍ، فبدأ يقول بشرودٍ صاخب .

- لكنه الخريف، الأكيد الذي ينزع عن اللحظة غوايتها، يتملكني أحياناً سآمٌ عنيف، حشدٌ من الجنود المكتظين بالضجر يصرخون علي: اذهب إلى نهايتك، وتصبح كل النغمات والكلمات تقول هذه الجملة بطرق شديدة السرية والخصوصية، وكأنني أنا الذي أقول ذلك لي، ومن غيري سيفتح فمه لي، حينها أرى جيداً الهاوية تحت أقدامي وكيف

تسحبني عتمتها الخبيثة، كيف تضرب الشمس كاحل الوقت بقوة، أنتِ مجرد شمس وأنت أيها الوقت مجرد وقت، هكذا أقفز إلى مكانٍ آخر، ذاك المكان الذي يبلغني عن كمية الضوء في اللحظة، عن البهجة الحرة من قيود الأشياء، لربما هي طقوسٌ تصنع من الأيام أثواباً جميلة ومن الزمن قدراً ضوئياً، ثمة دائماً كينونة أخرى تنتظرني في شوارع اللحظات، بين اللحظة والأخرى، لكن علي ألا أنسى تلك المقولة، ربما هي المقولة الوحيدة المسكونة في الذاكرة، قد تكون هي الذاكرة ذاتها، فما علينا تذكره هو ما لم نستطع نسيانه، المشاهد التي تصنع الذاكرة، كل تلك الأشياء التي تقول في جوهرها إن النهاية ضرورة عظيمة تجعل من الذكريات مقولات خالدة في صميم الزمن، إلا أنني لم أمتلك إلا هذه المقولة، لا أعلم لم! ربما كل ذكرياتي كانت تقول ذلك فقط، أظنني -وكما الجميع- أصنع نهايتي وأذهب إليها كما يجب، أخطو بشجاعة مجنون نحوها، فاللحظة التي أخلقها وتخلقني تخلق لكلينا نهايةً محتومة، نهاية بطلٍ لن يذكره إلا ذاكرته المدفونة معه، ليست النهاية إلا هذه اللحظة التي أتجرعها كما أشرب نبيذاً أو حياةً كاملة، هذه اللحظة التي تقول لي كل شيء كما تقول الطبيعة للشخص، قلتها كثيراً وسأقولها أبداً: أنا من فتح أبواب الأبدية في اللحظة وأخذ حقه من العزاء، عزيزتي الجميلة عزائي الوحيد لحظتي، طمأنينتي النغمة التي تصالح بين الحياة وكينونتي، والنهاية

هي النهاية، هي الكمال المطلق لكل ما أمكنني من الشعور والعيش.

بينما كان زغروس يتحدث بصوته المرتجف وبعيونه التي لم تتحرك عن سقف الغرفة وسيجارته التي شربها بشراهة حتى وصلت إلى نهايتها وأحرقت أصبعيه اللتان كانتا تمسكان بها كانت بيلان تسمع بنهمٍ وقشعريرة، محاولةً عكس كلامه على نفسها ومتخيلةً جبالاً جليدية تتكسر وتسقط إلى الوادي، لكنها خرجت عن صمتها بعد أن أنهى زغروس كلامه بدقيقة

- شعرت بالإنسان الذي يعيش فينا كلنا، أجبرتني على الصمت، لم يكن صمتاً مخيفاً متوحشاً، كان صمتاً خفيفاً ومتحركاً في قلبي وجسدي، لم أشعر بجسدي كما شعرت الآن، لكنني قلقة على صوتي كعصفور صغير، أتخيل نهايتي جيداً، أراني وحيدة، مسجونة في صمت شرير، لا بحيرة قريبة، لا في غرفة سجني ولا خارجها، وأرى الدمع كيف يعلو ببطء في الغرفة، دمعٌ أحمر، لونه أقرب للأسود، لا أدري، عيوني في المشهد مفقوعة، وشعري يتساقط بكثرة، وأصابعي تتكسر كأغصانٍ خشبية صغيرة، وأصرخ كثيراً ولا أحد يسمع صوتي، ولا حتى أنا.

شرعت بعد ذلك تبكي بجشع، صرخت في زغروس

- أحضني بقوة، لا تتركني معي.

لم يكسر زغروس خاطرها

- أريد سماع صوتي حين أموت

- ستسمعين، صوتك سيكون رائعاً وكاملاً

- أنا هشة في غياب أبي، كل الألوان فقدت لمعانها وقيمتها، هشاشة في عظام الوقت والمكان، ليس ثمة إلا أبي

- واللحظة عزيزتي، واللحظة.

7

ـ دعنا نتحمم

أمسكت بيده ذاهبةً إلى الحمام، وفي الطريق دار بينهما قبلةٌ عادية، لم يشتهي زغروس ذلك، حدثت القبلة دون طموح عالي، بطريقة اعتباطية وتلقائية، لكن بعدها بقليل التصقت به مقربةً فرجها من قضيبه حتى بدى الاحتكاك مباشراً وواضحاً جداً، ثم أمسكت بقضيبه المتدلي بحركاتٍ شبقة، إلا أن زغروس لم يتوافق مع حالتها ولم ينزل عند رغبتها وشهوتها، كانت عيونه تدور في المكان مختنقة ومنزعجة، فهمت بيلان احتقانه الملحوظ عند وصولهما إلى الحمام، فتركته وشرعت تملئ البانيو بالماء الفاتر، وبإيحاءات بسيطة أوضحت رغبتها في أن يجلس معها في البانيو.

ـ الفودكا سيعطيك الحكمة وأنت تغزو العالم بملامحك الغريبة وبقضيبك المغرور

خرجت ولم تعد لعدة دقائق، شك زغروس في غيابها الطويل فنادى عليها أكثر من مرة، فلم تجب وكأنها اختفت، لكنها بعد عدة دقائق أخرى من الغياب عادت وفي يديها زجاجة فودكا وكأس واحد، نظر إليها زغروس نظرات كلها تعجب ثم تجاهل ذلك وأشعل سيجارة، وحين رأى كأساً واحداً في يدها نطق يقول مع ابتسامة بسيطة

- العالم لا يمكن أن يكون ضيقاً هكذا، يجب أن يوجد أحد يرغب بكسر الكأس دون أن يعطش الأخر ودون أن يسأله عن ذلك.

ملئ رئتيه بدخان سيجارته أكثر من مرة حينما كانت بيلان تمشي وتقترب من البانيو، ومع ضحكةٍ كبيرة غطست جسدها في الماء، ثم بنظرةٍ خبيثة قالت بهدوء وثقة

- عالمي ضيق لا يتسع للعالم

كانت أثناء ذلك قد صبت في الكأس

- كأس واحد لا يروي صحراء قلبين، عالمين، وربما نقيضين.

شربت كأسها بعجلة ثم صبت كأساً آخر ووضعته بجانب زغروس

- فودكا وموسيقى وحزن وأب، نحن نجر جسدنا إلى قعر الحياة، عما نبحث؟

- عن ما لن نجده فإن وجدناه لن يعود ذاك الذي نبحث عنه، فنحن لا نبحث عن شيء ولا علينا ذلك، كل الضوء موجود في اللحظة فإن فقدنا مسار الضوء نقع تحت مخالب العتمة.

قال ذلك ببرودة مستفزة، نظرت بيلان إليه مستغربة

- وكيف أشعل الأضواء في اللحظة

رفع يديه بانفعال وقال بصوتٍ مشبعٍ بالطاقة والقوة

- أن تكوني حاضرة بقوة وتمرد، انفجري كما انفجر الكون في الكون.

صمت قليلاً ثم أكمل يقول

-الكتمان يصنع منا مسوخ والبوح يصنع منا مهرجين، لكن من الأفضل أن نكون مهرجين على أن نكون مسوخاً، أريد أن أكون صادقاً، غير مجبر على الكذب حين أقول أن يدي مجروحة، لكن ثمة أماكن تمنعنا عنا، أماكن ترغب دائماً وتعيش دائماً على كتماننا، يجب أن نصيح في وجه العدم، نحن اللحظة الحية في صميم الزمن، نحن الحياة حين تخرج الشمس من خلف الغيوم السوداء.

أمتلئ ذهن بيلان ببعض الشكوك عن قضية وجوده هنا فصبت في الكأس مجدداً ثم قالت بهدوء وحذر

- حدثني عن بيتك

نزل عليه سؤالها كالصاعقة، فهم فوراً ضرورة هذا السؤال هنا، لا لأنه هنا بل لأن بيته لم يخرج مطلقاً من منطقة الحجب في كيانه منذ أن أنطلق في تشرده، أشتعل حريقٌ في ذاكرته

بدى عليه السكر حين فتح فمه قائلاً

- آه حسناً عزيزتي أنا أسكن تحتكم وثمة شيء مجهول قد دخل إلى منزلي، لكن حين لفظت بيت حلت علي لعنة ثقيلة.

أنقطع صوته مجدداً، وجهه كان مثقلاً بالأسى والحزن حين بدأ يقول بصوتٍ حنون

-البيت يتغير وجهه حين نخرج منه، نسمع نحيبه من بعيد، الجدران، الأثاث، السرير، الأبواب، النافذة، البلاط، نسمع أنيناً مشتركاً منهم، نسمع كيف تفتح الأبدية أبوابها للفاجعة، نسمع نشيجاً متلعثماً من نبض المكان، تذكر نفسك أنه كان عليك سماع اللحظة أكثر في البيت، كان عليك تقدير لحظتك الأخيرة بينكما تقديراً أنثوياً، كان على الحرب أن تقف خارج تلك اللحظة، كان عليك أن تنبض نبضك الأول في رحم بيتك، هكذا تخدر حواسك بندمك المفتعل المخلوق من الولع، وتشد حبال المنفى حول عنق الكينونة، كنت أفهم منزلي عزيزتي، أفهم مزاجه وأمراضه ونبضه ولغته، أفهم كيف يدخل الفجر عارياً إلى الغرف، وكيف تعانق العصافير النافذة، وكيف يطير الهواء داخلاً وخارجاً، كيف تشبع الجدران من ضوء الشمس، كيف يحاول السقف تغيير مزاجي، كيف يعانقني المنزل في كل لحظاتي، كنت أفهم العلاقة السرية بيننا دون أن أقحم فكرةً واحدة، الخيال يعيد الحياة إلى الحياة، والإنسان إلى الإنسان، والمعنى إلى المكان، لم يكن ثمة طغيان بيننا، ربما لم يحدث موتٌ في إحدى زوايا المنزل، لم يتفتت حلمٌ، لم يقترف القلب نزوةً شريرة، وكان السرير صديقاً رائعاً، يصطحبن في مغامراتٍ كثيفة الأضواء، وإلى غابات الصدى، كان بيتاً من لحمٍ ونبض، نرقص ونسمع الموسيقى معاً، نشرب حتى الفجر دون أي شعورٍ بالذنب،

دون أن نفكر بنبوءةٍ متطفلة، بلطفٍ كنا نتجرع الطمأنينة الهادئة، بنهمٍ نشعر باللحظة، نعيش الحياة كما يجب، كما يمكن أن تعيشه فراشةٌ في ربيعٍ منفتح، كما يعيش الهواء في رئة الإرادة، كان بيننا إرادة النطق والصمت، إرادة الحجب والكشف، إرادة التمرد والسكون، نفتح الأفق ونركض في حقول الألوان، وكثيراً ما وصلنا إلى نقطة اللامتناهي، حين نكون مشبعين بإرادة الإرادة، تلك اللحظة العالية الهائلة من النعمة والعزاء، في أوج حضورٍ كثيفٍ، في الهواء العاري من الغبار، في الفضاء الذي ينفتح على كل الجهات

بنظراتٍ ثاقبة تلفت إلى وجه بجلان، كان في وجهه مشاعرٌ صاخبة، لم ينظر إلى وجه بجلان كما هو حاضر، لم يرغب بفهم وجهها، كان ثمة حضورٌ آخر يتجلى في وجهها، انعكاس لباطنه، كأنها لم تكن موجودة أو وجودها طريقةٌ لخوض مغامرات الذات.

بكثيرٍ من اليأس ذهب إلى صميم قوله، وبقوةٍ فتاكة وضع ملامحه على وجهه

-لكن ماذا الآن، هل لي بيت؟، ارتباك في عضل القلب، لست أرى بوضوح مكاناً سيعانقني، والموسيقى لم تعد تمد لي يدها ما دمت غير متصلٍ بالأرض، تائه، مشرد، مفجع، حائر، جائع، خائب، ممزق، متسخ، مقذوف، مخدور، محظور، تائهٌ بين الجهات والفصول، مشرد بين الرياح

الطاغية، مفجوع بمسرحيات القدر، حائرٌ علي بحيرةٍ أمومية، جائع إلى الهدوء والموسيقى، خائب من إرادة الطبيعة، ممزق بسكاكين الغربة، مقذوف في الوجود كقنبلة لم تنفجر بعد، مخدور من رؤية سقوف السماء، محظور عن الربيع، كنت ذاتي دائماً ولازلت أدنو إلي كالموت، كنت المرتعش في صقيع الفجيعة وفي طمأنينة الدهشة، بينهما نغمةٌ سرية وشرخٌ عجيب.

كالطفل قفز من مكانه إلى حضن بيلان ووضع رأسه بين نهديها، لم ترتبك بيلان من عناقه فشدت ذراعيها حول ظهره، أغمض عينيه قائلاً

-لست إلا لحظتي، حياتي كلها لحظتي، الفناء الذي يتمدد كالكون يتربص بكل شيء، رأيت الرؤية، أخذت اللحظة من أيادي اللعنة وهربت كالسارق، أنا السارق النبيل للحظتي.

8

تدفق، انهيار، مرت ساعة ثقيلة والهواء المضجر يتغلغل في الهواء النقي، كان المشهد مضطرباَ بين الصياح والصمت، هلوسات مرتجلة من الصوت والكثير من الصدام بينهما، كأن لعنة ما قد انفجرت في المكان، ساعة تفاقم فيها كل شيء، حتى التنفس قد صار دعوة إلى الاختناق، كانت الجدران تهتز، الأرض تهتز، الحياة تهتز، هشاشة شرسة تسرب في الأشياء ومن الأشياء، الفتاة الحزينة تفجرت بكاءً على شيء ما مجهول، زغروس تفجر حيرةً على شيء ما مجهول، بكائها كان حاداً على قلب زغروس وصمته كان مراً على قلب الحزينة، لم يكن ممكناً فهم شيء ولم يكن رغبة الفهم موجودة فيهما، كانت الأنانية ألذ مزحةٍ سرية، تحول التواصل إلى غرفة تعذيب والكلمة إلى سلطة والحركة إلى تهديدٍ مباشر، والسكون إلى عاصفة داخلية، الجدران إلى سجن، العيون إلى مرآة الرغبة، الجنون إلى فن القوة، السقف إلى طغيان ذاتي، الرحمة إلى ضعف، اليد إلى ملكية جحيم، الابتسامة إلى انتقام، الجمال إلى قبح، حدثت تحولات هائلة في صورة بعضهما عن الآخر حتى لم يعد ثمة إمكانٌ لتأسيس إيماء أو إيحاء موحد، تاريخ لحظي مشترك إنهار في غضون ساعة، بل أن الدمعة التي هي عزاء الألم قد تشوهت في صميم اللحظة، هكذا بتراجيديا درامية أخذت

الفوضى زمام المبادرة من الإرادة، والتاريخ أختلت بوصلته، والمجهول أنفرد بالزمن، لم تعد اللحظة عارية ونظيفة...

ثم وبديمومةٍ مستبدة وعصبية وصل العراك الغريب والصراع اللا مفهوم إلى الذروة، كان كل ذلك إشارات النهاية

هكذا كتب زغروس على الورقة التي كانت موجودة على الطاولة في غرفة بيلان حين طلبت منه صندوقها الفارغ قبل أن يخرج من المنزل، كان يسكب منه العرق كالبحر وهو يكتب، وتكاد ملامحه تخرج من وجهه في نوبة غياب، لكنه كتب دون أن يفهم جدوى كتابة ذلك، مجرد وصية نهاية أو محاولة للخروج من النفس أو تنهيده ختامية، كتب ذلك وأنتهى، ثم وبجنونٍ عصبي لبس ثيابه بعجلة، وضع الدفتر وقلم في جيبه دون غاية واضحة، لم يكن يفكر في شيء، كان مشتت الذهن وملتهب القلب، وقبل خروجه أخذ الصندوق إليها دون أن يقول شيئاً، حتى دون أن يتم تبادل نظرات الوداع بينهما، أما بيلان فكانت لاتزال ممددة في البانيو وصامتة كل الصمت، وضع زغروس الصندوق بجانبها بحركة خاطفة ومنزعجة، أخذته وفتحته بين فخذيها بعد أن أفرغت البانيو من الماء، ثم لفت ذراعيها حول صدرها ونهديها بوحدة وألم، وكانت القطة قد أتت إلى الحمام وقفزت إلى جانبها، كأنها شمت رائحة حزنها، لم يدم

كل ذلك إلا لحظات متتالية قليلة، وبينما كان زغروس يمشط شعره أمام المرأة بلامبالاة متعجرفة نطقت بيلان جملتها الأخيرة بنبرة مبهمة

-نسيت معطفك!

إلا أنه لم يعبر عن أي رد تجاه ذلك، كل ما فعله هو أخذ المعطف والسير تجاه الباب بخطواته كبيرة وبوجهه البارد.

كان من الممكن أن يتغير كل شيء بمزحة واحدة، بمزحة تحكي الكثير من الأشياء دون أن تدل على ذلك، مزحة تغير مستقبلاً وتنسق مجموعة هائلة من الصدف الفوضوية والمعاني العشوائية، كان ممكناً لكن إمكان ذلك كان صفراً، كل شيء مقدر وصلب تجاه الفكاهة، حتى النور الخفيف للشمس كان يدخل من النافذة بمعارضة، لم يكن ممكناً فهم شيء في سيرورة الأحداث التي هي مفهومة تماماً في سيرها الصلب نحو النهاية، لم يكن إيقاع النهاية منتظماً، لم تكن نهاية جديرة بالقيمة، لم تكن نهاية حقيقية، لم تنتهي المشاعر المختلطة بقبلة، ولا حتى بابتسامة، عبثية عجيبة، نهاية حيوانية حقيرة، فكر بذلك زغروس وهو ينظر إلى زهرته التي كانت لا تزال قرب الباب منذ دخوله إلى المنزل، فحملها بأسى وخرج ببطء شديد دون أن يفهم رغبته في إبطاء حركاته، ثم أمسك مقبض الباب بقوة عجيبة، وكان الباب سيغلق إغلاقاً مفصلياً، إلا إنه وبحركة تمرد ألقى نظرته الأخيرة -وهذا كل ما فعله- على المنزل من العتبة

فوجد سكوناً مريباً ملتصقاً بالأشياء، حتى بيلان التي تهرب من الصمت كانت صامته، لم يتعجب ولم يجد شيئاً مثيراً للاهتمام، ثم وإذا به يجد لون الأحمر ينبثق على إحدى أطراف البانيو قبل أن يغلق الباب في هنيهة، أندهش ساكناً في مكانه بسكونٍ رهيب وكان الباب قد أغلق تماماً ولم يعد ممكناً أي شيء، ولا حتى نظرة تفسير أو تأويل، لم يفكر في انتحار بيلان تفكيراً جدياً، لم يدم السكون إلا للحظات مرعبة، لم توجد أية ثورة في باطنه، كل مشاعره ساكتة وعاجزة، وليس ثمة عضلة واحدة تحركت في وجهه، وفي الوقت ذات ثمة فورة برودة تتصاعد في كيانه، رمى خطوته الأولى على الدرج وتوقف مجدداً، وقف في وجود آخر، عاصفة ثلجية تثور في كيانه، ما المعنى من كل ذلك؟ تشبث بخيط السؤال عله يتزن في ذهنه، كان بين البين، ألغام وألغاز حوله وحول كل فكرة وشعور، لم يكن يدري ماذا عليه أن يفعل، امتلكته رغبةٌ ما، أعليه أن يضحك أم يبكي؟ رغبة بالتوقف إلى الأبد، أحس بنفسه المتعبة بين الغليان والبرودة، بين الرجوع والمضي قدماً، بين وجودين، بين حياتين، لكنه رأى في الوقوف معنى، عليه أن يتوقف عن أي شيء جديد إن كان سيرجع أو يمضي، لم يعد ثمة مكانٌ لأي شعور جديد حتى لو كانت الخفة ذاتها، شعر بثقل الأشياء والأشخاص والمشاعر والأفكار، وبثقل شخصه على شخصه، فكرة واحدة تدور في ذهنه -وهي أن الثقل صفة صلبة للقبح- وكل التأملات الأخرى تدور حولها، القبح لعنة اللحظة، يأخذ منها

الدهشة التي تأتي من إدراك حرية اللحظة، يأخذ منها خفتها، يضع الحدود حول امتدادها، يسرق معنى اللحظة الكامن في الارتباط اللحظي، لا تعود اللحظة قادرةً على كشف جماليتها أمام مرآة الذات، تصبح عاجزةً عن سرد جوهرها، منكسرةً في قلب الكون الداخلي، بائسةً أمام شراسة القبح، خائفةً من العيون المخيفة للثقل، ومنتحبةً على القدر، لا تبك اللحظة إلا حين يغدو للقدر مكانةً في قيمة الحياة، يصبح حينذاك كل شيء ضيقاً على الكينونة، لا يتنفس الإنسان إلا لحظته ولا يختنق إلا بالقبح، لا يبتسم الزمن إلا بالخفة ولا يبك إلا بالثقل، لم يفكر زغروس بأكثر من ذلك، كان لا يزال واقفاً وقوفاً صلباً، لم يعد في نظره أي معنى للحركة، هنا ليست الحركة إلا طلباً للمغفرة من المجهول عن عدم وجود ذنب مقترف، أي طلباً لأثقال جديدة بضحكة عدوانية، أي قبول كل ما حصل منذ الخلية الأحادية إلى لحظة السابقة للفناء العظيم، لكن زغروس رغم تقربه الشديد من فكرة الوقوف إذا به يتحرك ويصعد الأدراج نحو الأعلى، بحركات لاإرادية اعتباطية وبوجه الشاحب المكفهر، لم يتفرس في أي شيء، يمضي دون رؤية ودون رغبة وكأنه ليس المحرك لقدميه، لم يدم غيابه عن مكانه، عن جسده، إلا وعاد متعجباً من قدميه، من حركاته التي تعمل دونه، من سيلان الأوامر بين الدماغ والأعصاب، حتى تعجب من تعجبه من ذلك، أحس بنوبة الرهان، حين يطحن الزجاج الحاد في كبد اللحظة، حين تتحول الحياة إلى لعبة قمار طاحنة في النفس البشرية،

ويثور الخطر حول قلب الإنسان ثوراناً مرعباً، ويتدرب الهواء على لذة المراهنة العجيبة، حين تغدو الموسيقى ناراً نيرونية يشعل مدن البصيرة، حين يكون الزمن صفعة وقبلة، نعمة ونقمة، إغواء ونفور، شجاعة وجبن، نوبة الرهان تحدث بهزةٍ عنيفة في اللحظة، ببصيرةٍ ثاقبة ترى كيف أن كل لحظة هي رهانٌ على الحياة كلها، إنك تلعب لعبتك الكبرى دون أن تفهم قواعد اللعبة ودون أن تفهم معاني الفوز والخسارة والمسؤولية والهزيمة والنصر، دون أي فهمٍ لأبعاد كل حركة وحرف، أبعاد كل شعورٍ وفكرة، أبعاد جوهر اللحظة، أبعاد رؤيتك للحظتك المتبرجة أمام عيون الإحساس، الصميم المكتظ بالمشاريع الشخصية يحل عليه ضبابٌ طائش، تكاد تخسر لحظتك عندما تحس بصخب وضراوة الرهان، وتدري جيداً إن كل لحظة لك كانت رهاناً مفتوحاً على عدد لامتناهي من الاحتمالات، وكأن نسبتك من المسؤولية تجاه الحياة ضئيلة جداً ومتناسبة مع مدى غياب الحياة الكبرى عن بصيرتك، وتحس بصعوبة احتواءك للحياة، تعود الذاكرة إلى كهف العتمة وتصبح اللحظة قلقاً مهيباً، والمستقبل غيباً لا مفتاح له، لا تكاد تمسك بشيء امساكاً جيداً، جسدك يهرب منك، إرادتك تضيع، عيونك لا ترى، يدك لا تتحس المكان كله، لست في المكان، لا زمان حولك، كأنك لست أنت، أنت تفتك بالانا، هذه هي نوبة الرهان.

ما الحياة أيتها الحياة؟ صرخ زغروس بعويلٍ مكتوم في داخله حين شعر بشعور فقدان اللحظة، إلا أنه استعاد أتزانه واسترد من نوبة الرهان لحظته، كيف تقتحم الأفكار السرية سديم فردوس اللحظة بهيجانٍ ناقم وتأخذ منه أثمن ما يمتلكه في الحياة في حين ليس ثمة إلا ضوء اللحظة بين الإنسان والكون ؟ فإن كان ثمة لعبة مراهنة فالحبل الذي يربط الإنسان بلحظته أمتن من حبل الوريد والمكان والزمان والطبيعة، بل هو الرابط الوحيد بين كل ذلك، إذ لا إمكان في العيش دون أن تسرد اللحظة نبضها في قلب الزمن، والجمال الذي هو صوت الذرة هو أيضاً صوت اللحظة، والشعور قبل أن يكون تواصلاً مع الإنسان فهو تواصلٌ عميق مع قلب اللحظة، فما اللحظة إلا كل شيء، حتى الإحساس بخطورة الرهان جزءٌ من الإحساس باللحظة.

انبثق في كيان زاغروس فراغٌ منعش بعد أن أحس بلمعان وجود لحظته، كان كمن وصل لتوه إلى الفردوس الذي فقد منذ بداية الزمن، نظر بنشوةٍ وبهجةٍ إلى جسده والأثقال تتطاير منه إلى غياهب عتمة الممر، كأنه يقول إن هذه الحركة على الأدراج فيها دواءٌ سري لهواجسه عن اللحظة، أحس بالخفة، بخفة الهواء، بخفة العتمة، بخفة الممر، كان خفيفاً هو، يكاد يكون الوجود أخف من الموجود، والموجود أخف من اللحظة، شعر بلحظته، بوحدته الفرحة، بذاته الخاصة، بحياته اللامتناهية، بالفضاء وهو يتمدد في باطنه كما يتمدد في الخارج، كان كل شيء حوله يبتسم، العتمة

صارت ابتسامةً جمالية، كان كل شيء حوله جميلاً بالخفة، ليس ثمة قبحٌ في اللحظة، ضحك ضحكته الثانية، وعلى خلاف ضحكته الأولى فالآن هو وحده مع ذاته، ضحكته كانت ذات صدى جمالي أكبر في قلبه، إذ ليس ثمة هاجسٌ صغيرٌ يثير جدلاً حول جمالية هذه الضحكة البريئة، هي ضحكة الحرية، تتجلى في إحساسٍ بجوهر اللحظة، تنبعث في الهواء الخفيف للوحدة، أنت كلك لك، ببساطة شديدة، لا عقد، لا قدر، لا غيوم سوداء في سماء الزمن، لا شموس حارقة، لا أقمار بعيدة، لا حياة خارج هذه اللحظة العالية بضوء الحرية، أنت حرٌ كما لم تكن حراً في أي زمنٍ كان، الآن هو أنت، كلك أنت، أنت هنا، فيك، في المعنى، في اللحظة، في الممر الذي لا تدري إلى أين يؤدي، ليس عليك أن تدري، إذ ليس ممكناً ذلك أبداً، كل تخيلٍ للقادم هي تبعيةٌ للماضي واعتراف بتأثيرات الماضي على البصيرة، لا شيء بعد ذلك، كن في الآن، في الحاضر، أنت حرٌ من الماضي وبذلك أنت حرٌ من القادم والصور، وبذلك أنت الحاضر الحر من الحاضر، لا معنى لأي حدث ولا لأي شخص، لست في الممر، لست في المكان، ولا في الزمان، أنت الحاضر كله دون أن تتسخ بمستنقع الوجود البشري، أنت لك حاضرٌ خصوصي، في زاوية الحياة، في اللحظة الحرة من الزمن.

مرت عليه لحظته السعيدة المدهشة، كان لا يزال يبتسم وهو يصعد الأدراج من عتبة باب غمكين إلى الطابق الذي فوقه دون أن يمتلك رغبةً حقيقية بذلك، يصعد كمن يصعد أدراج

الهاوية، كامل السعادة، خارجاً من الزيف كما يظن، خارجاً من حكاية ارتباط عنيفة ومعقدة، حكاية غريبة، حدثت لساعات لكنها أطول من أعمار السلاحف، هارباً من كل ما حدث، من كل كلمة تفوه بها، من كل كلمة سمعها، من كل شعور وصورة، من فضاءٍ تقلص في جرة زجاج، لم ينوي تذكر شيء، أقفل الأبواب على ذاكرته دون رغبة في تحليل أو تفسير أو تقييم أو تأويل شيء، كما أن وجه بيلان قد تم نسيانه وبدى وجهاً ناقصاً يثير جدلاً وعبثاً في الذهن والقلب، هكذا ترك كل شيء على حاله في زمنٍ مضى سريعاً، مجرد ساعات وأكوان، وبذلك يفتح حياةً جديدة، إلا إنه وجد نفسه في مفاجأة صادمة، بتقديرٍ مهزوز وبرعشةٍ صارمة رأى أحدهم ينتظره على عتبة الطابق الذي وصل إليه، لم يظهر منه في العتمة إلا هيكله البشري، لكن سكوته كان واضحاً ومثيراً للرعب، نطق زغروس بقلقٍ مهيب وبتلقائية مندفعة رغبةً في تحرير نفسه من قلقه المفجع

-من أنت؟

أهتز صوته برنةٍ مرتبكة وطفولية في المكان، ثم وجد نفسه المنتظر الحقيقي في المشهد بينهما، فذاك الشخص لم يصدر أي صوت ملموس، ولم يتحرك قيد أنملة، وزغروس لم يبدي رداً آخر خوفاً من تفاقم الحادث، كان سينتظر كل حياته في سبيل سماع رد منه، إذ رعشته المخيفة قد رجت ملكة الرغبة وما عاد قادراً على تغيير جهته، كأن الحياة كلها

توقفت هنا، في هذا الارتباط المشؤوم بينهما، في هذا الحادث صادم بين المجهول والمعلوم، بحركات مرتبكة تراجع إلى الوراء قليلاً وأتكأ على الجدار خلفه، لكن عيونه لازالت تتربص بالهيكل الظاهر أمامه و كأن هذا الشخص الصانع الوحيد للمكان، الصانع الذي لا تفهم لغته ولا يثير إلا العبث بسكوته الأبدي أو هذه لغته الملعونة، العتمة كانت شديدة رغم أن الشمس في الخارج قد بدأت تشرق بدورانها حول الحقيقة، كل الحقيقة هنا، في العتمة، أمام الهيكل العظمي الذي يشع بعض أطرافه الظاهرة أمام عيون زغروس، لا زمن هنا، كل شيء متوقف، قلب زغروس هو الوحيد المتحرك في هذا السكون الطويل، في هذه العتمة الكبيرة، أتخذ زغروس قراره وتراجع عن العتبة نحو الأدراج التي تعود به إلى بيلان، إلا أن قراره لم يدمِ طويلاً وتراجع عن خطوته، كان الماضي خلفه أكثر وحشةً من هذا الهيكل الساكن الساكت، وعاد كما كان في مكانه السابق، دون حركة، لا صوت، عيونه ثابتة، جسده يتعرق قلقاً، رعشة طويلة تسير في جسده، رعشة لهيب العجز، كل الحدود أغلقت حوله، حول حياته، جسده، صوته، لا فسحة إلا للتنفس السريع، رعشة الاستسلام، استسلم تماماً عن مقاومة، عن التعبير عن اللحظة والإحساس بها، رعشة اليأس، تسللت أفكاره عن مشاركة اللحظات لمعان جوهرها، ذهنه أصبح مستعمرة العدم، رعشة القلق الأخيرة، التحرك السري في الأشياء، كل الأشياء تتحرك دون إعطاء أي معنى

للحركة، لا معنى يأخذه العقل من الحركات، إذ كل الحركات هي حركات السكون، ليس السكون سكوناً تاماً، السكون حركةٌ تعارض الحركة ذاتها، السكون يحرك كل شيء دون أن تكون الحركة ذات مغزى وحكمة، إنه العدو اللدود للحكمة، هو الذي يحك جلد التاريخ، يثير عبثاً في باطن الحياة، يثبت شراسة القدر، رعشة الهلع الطفولي، رعشة الاعتراف بكل ما هو مكتوم في النفس، رعشة الحقيقة المختبئة في الكون، رعشة القيامة الشخصية، رعشة الصدمة، إن كل هذه الرعشات هي رعشة المنفى.

ـ تكلم يا هذا !

باغت زغروس باطنه وكل مشاعره بصوتٍ متمرد وغاضب كاسراً كل شيء بضربةٍ قاضية، لم يكن مقدراً ذلك، كانت خفة وشراسة، تمرد بالخفة الأمومية وبالشراسة الأبوية على اللحظة الخاصة، كأنه يقول: رغم كل شيء أنا لي، استطاع أن يشعر بنفسه، بقيمة اللحظة، بمعنى الحياة، وصل إلى موطن قوته، إلى جوهر الجمال الذي يضيئ المعنى والقيمة واللحظة، تحرك هذا الشخص بضع حركات صغيرة معلناً عن وجوده ومتفهماً لمعاني صوت زغروس، وأخيراً حرك شفاهه ليصدر صوته الخشن المتسلط بإيقاع سريع

ـ أنا من تهرب منه منذ شهور !

تفكر زغروس لوهلةٍ محاولاً تذكره رغم ضبابية الموقف وعتمة النفس، ولم يزده ذلك إلا هلعاً وحيرةً، كائن مبهم لا يظهر وجهه وأهرب منه أيضاً! لماذا علي أن أهرب من أحد ما؟ لم يركض خلفي؟ لم يفعل ذلك وهو يدري جيداً أني أهرب منه؟ من أين خرج ولم الآن؟ كيف نفهم ما يحدث؟ كيف أصل إلى نهاية الموقف؟ والآن ماذا سيفعل؟ ما نوع رغبته الذي يريد تحقيقها عن طريقي؟ ودارت هذه الأسئلة في ذهنه كالإعصار ثم في الأخير تثبت على السؤال الرئيسي الملح (من هو؟)، إنه مجهول، مجهول جداً، مغلق أمام أي بصيرة تبحث عن معلومة، كل مجهول هو مشارك في حملة الخوف، هو عدو الأول للجمال، لا يدخل الجمال أماكن التي تفوح منها رائحة الخوف، لربما قد لا يكون هذا المجهول متوحشاً، احتمال وارد جداً، لكن هو من خلال مجهولة يتحول إلى ذئب، رغم معرفة الإنسان بذلك إلا أنه رغماً عنه يرى توحشاً في كل شيء مجهول، الإنسان يحب أن يخاف، الخوف هو مدير صناعة المجهول، هو الذي يجعل من المجهول مجهولاً مخيفاً، يستخدمه الإنسان ليشعر بخوفه الطبيعي، ليعود محباً لكهفه الأولي، محباً للطبيعة، يسخره في حب الحياة بكل ما به من هواجس وعواطف، يعود به إلى نقطة الصفر ليبني منه -دون أن يشعر- كائناً جديداً، يصبح به كائناً ضعيفاً يتقبل كل شيء حتى تلك الأشياء التي كان يعارضها بعنف عفوي، الإنسان يتغير بالإرادة والخوف، إن المجهول معارضٌ متكبر للإرادة، تتوقف الحياة على

عتبة المجهول منتظرة منه كشف وجهه ومعلومة، يتوقف الإنسان على عتبة المجهول بالتفاهة أو بالسخرية أو بالتعصب أو بالخنوع ريثما يكشف له عن زيفه ونقاط ضعفه.

تحرك زغروس عدة حركات عادية بعد أن فهم سؤاله الرئيسي، كان ذاك المجهول لايزال ساكناً وكأنه يقصد ذلك برغبة شديدة، كأنه يرغب بتحسس الخوف حوله، يتعطش لشرب دماء الإنسان بكسر إرادته، بتشويش ذهنه، بصنع السقوف فوقه، بخلق الجدران حوله، تفكر زغروس أكثر من ذي قبل، قد لا يكون مجهولاً! ربما أنا أصنع له مجهولة أمام عيوني! ربما لا أمتلك عيون، ربما لا شيء مهم يحدث هنا! لكن علي أن أعرف من هو، لا، ليس مخيفاً، لن يأخذ مني لحظتي، سينتهي كل شيء الآن أو بعد قليل، لكن حقاً لا أفهم ماذا يحدث! الأهم الآن من هو؟ هل يمكنني معرفته؟ لم ليس معي بل ضدي؟ هل هناك جانب آخر أجهله؟ جانب آخر يسكنه هذا وينظر إلي بطريقة مغايرة؟ كيف يفكر؟ هل يفهم اللحظة؟ عما يبحث في الحياة، بما يشعر، هل حقاً يشعر؟ كيف؟ وبعد تفكيرٍ مرضي طويل نطق بنبرة مستنجدة ضعيفة

- ألم تشبع ؟

تحرك المجهول حركةً خفيفة، ثم فجأةً ضحك ضحكةً كبيرة، ومن شدة تأثره الساخر أتكأ بيده على الجدار الذي بجانبه، كان واضحاً من جمجمته أن فمه قد فتح تماماً، ومن صوته

أن الموقف مثيرٌ للسخرية جداً، توقف عن ضحكته المستفزة وقال بصوتٍ منتقم أقرب إلى الصياح

- متى ستدفع إجار المنزل الذي تراكم جداً؟

ما أن سمع زغروس ذلك حتى قفز من مكانه صاعداً إلى الطابق الذي فوقه بسرعة خاطفة، متجاهلاً العتمة التي تعيق بصيرته ومتجاوزاً المجهول الذي بدأ يصرخ باسمه بغضب قاسي، تخبط بالجدار وضاع قدماه على الأدراج، ما كان قادراً على إدراك الأدراج وكاد يسقط ويتدحرج إلى الأسفل، وكادت زهرته تسقط من يده، أحس بضيق التنفس في صدره وبضيق المبنى على حياته، جر جسده في متاهة الأدراج كمجرم هارب، ينظر حوله بتركيز شديد رغم معرفته اليقينية من عدم تمكنه من الرؤية الواضحة، العتمة هي الوحيدة قربه، هي الوحيدة التي تلامس باطنه وجسده، كأن هذه العتمة وجدت في سبيل إرضاخه وإهانته، لكن حتى لو لم توجد هذه العتمة فسيكون الضوء معتماً في رؤيته، كل الأشياء ستكون معتمة ومرهقة، كل الحركات ستثير هواجسه وهلوساه، كل الأصوات ستسلب منه صوته، كل الوجوه ستمنع ملامحه عن الوضوح، وستعاقب وجهه على الغموض، وستشوه ابتسامته وتكسر أسنانه، هذه العتمة تركض خلفه بسرية عجيبة، تدخل فيه كسفاح وتخرج منه كمنتشي، تدور حول نبضه، تكمش نبضة وتترك أخرى،

تتلاعب بالنبضات برغبة سادية وقحة، تقتحم الشرايين دون استئذان، تمتزج بالدم وتنشر فيه فوضى الموت.

في صراعٍ لحظي بين الهواء والعتمة والنفس وصل زغروس إلى الطابق الجديد، كان لايزال يتنفس بصعوبة بالغة رغم إنه صعد طابقاً واحداً فقط، أتكأ متعباً على الجدار الخلفي للعتبة وإذا بوجهٍ يقترب من وجهه ويدٌ ما تلامس ذقنه، نطق المقترب فجأةً وبتكرارٍ أحمق

- ستكون دائماً على الأدراج

ما أن سمع زغروس الصوت المحمل بالكلمات والكلمات المحملة بالمعاني حتى عرف هويته القابلة للرؤية البسيطة أو ما يكفي ليتم تصنيفه، إنه المجنون الذي يسكن هذا الطابق، لهث زغروس سائلاً

- ماذا تفعل في الخارج في هذه الساعة أيها العبقري

ضحك المجنون ضحكته المستفزة وقال متلعثماً وهو يحك ذقن زغروس ويتنفس في وجهه

-أنتظر الشمس كما تفعل أنت

إن لغته المجازية مدهشة، هؤلاء المجانيين يفهمون اللغة أكثر من العقلاء الصارمين، مرت هذه الفكرة في ذهن زغروس ثم أباح له ذلك لربما يفوح من نبضه عطر الفرح

- عبقرتيك مثيرة

انزعج المجنون صائحاً

- وجنونكم أيضاً .

رد عليه زغروس بضجر

- عد إلى منزلك

- إنهم نائمون، نائمون جداً، أتتصور ذلك؟

مسد زغروس جفنيه متذكراً إنه لم ينم بعد، وقال للمجنون وكأنه يقول لنفسه ذلك، دون أن يفرض ذاته عليه وبعفوية خفيفة

- أحاول تخيل النوم

- أه، عما يجب أن نسأل وكيف نسأل

أخرج زغروس من جيبه علبة السجائر وأكرمه بواحدة، ودون أن يشعلها له أكمل طريقه نحو السطح ببطء شديد، وما أن وصل إلى الأدراج الأخيرة وجد ذاك الطفل الذي رأه عند باب بيته جالساً يحرك ساقيه بطفولية عفوية، فأقترب منه وقال

- كم أنت بعيد عن الحياة وكم أنت قريب منها

بقي الطفل صامتا فجلس زغروس بجانبه

- وماذا الآن؟ لا أدري، كم أنا جاهلٌ بكل شيء

مرت عدة دقائق صامتة ثم أحس زغروس بحرارة الشمس فقام من مكانه نحو الأعلى رامياً كل الحياة خلفه، كل الأثقال والأفكار والأشخاص والمشاعر والأحداث والأشياء، يريد فقط أن يرى الشمس وهي تخرج، وهي تصل إليه بعد دوران الأرض دورة كاملة حوله، مردداً جملة (على الشمس أن تتكلم بصدى) في ذهنه بهذيان معذب.

9

وحيدٌ جداً وتسعده وحدته التي تفتح له أبواب اللحظة على عوالم الحياة الشعورية، مقبلاً ابداً على طريق الشمس، بحساسيته الملتهبة، بأقدامه المتعبة، بقلبه المثقوب بأشواك الطريق، بوجهه الغريب، بلحظته، بكل ما به من هواء نقي، أنتهى من الأدراج انتهاء النار من الخشب، لم ينبثق فيه شكٌ في كل ما حدث، لم يعد ثمة مجهول يركض خلف معطفه، لا مجنون يعبث بملامحه، لا امرأة في المشهد، ليس ثمة رجلٌ خطفه الضباب، لا شيء في منزله، لا منزل في الأفق، النسيان المقصود محى كل الماضي، يريد أن يعيش الحياة فقط، لكن الأسئلة الأولى تعود دائماً بصخب عارم، ماذا الآن وإلى أين وكيف؟ زغروس الصاعد إلى الشمس فيه تيهٌ غير مكشوف، إنه التائه رغم حضوره في ذاته، تائهٌ عن الحياة وفي الحياة، والآن قد خطى خطواته الأخيرة خطوات الاشتهاء الطفولي والطمأنينة الهادئة، شاعراً بالحياة تعود إلى أعضائه، وصل إلى السطح، كانت الشمس قد ظهرت بوهجها تماماً، كل الأشياء صارت في علاقةٍ حميمية مع الضوء، أصبح الضوء سيد الأشياء والأشخاص، فتح زغروس ذراعيه بوسعهما ورفع جبينه، لم يغمض عينيه، يرغب بامتصاص كل الضوء بصيرته، شعر براحةٍ عالية، تعبٌ بسيط في قدميه، أشتاق فجأةً إلى موسيقاه، لكنه عكس شوقه إلى الضوء، رأى زغروس في الضوء يقظةً مبهجة، جسراً إلى الهواء النقي المشبع بالقوة، أبعد عن جفنيه

النعاس، أستنشق الهواء برغبة طفل، تنفس كناجي، شعر بلحظة النجاة، حين ينجو الإنسان من عتمة العدم أو من العدم الموجود في العتمة إلى ضوء اللحظة، حين ينبض القلب منتعشاً في نصره على السكتات الحادة، لا موت يثير ضجةً في الحياة، لا موت يتربص بالمعنى، الموت مجرد رمزٍ، فكرةٍ عن ما لا يصل إلى الإنسان إلا حين يذهب الإنسان إلى مكانٍ ليس فيه وجوده، حين يغيب عن الإنسان لحظته، لا هلع يخنق الرئة عن حقه في الهواء، لا قلق يشتد بالمجهول

شرع زغروس يؤدي رقصةً مجنونة، تحرك جسده ببطء منسجماً مع لحظته، كان خفيفاً كالهواء، قوياً كالجبل، سعيداً كالبحر، عظيماً كالضوء، يخفق قلبه بانتظام عجيب، تتكون ملامحه بمعجزة مدهشة، موسيقى ما تسير في دمه، إيقاع يتحرك في شرايينه، رعشة مبهجة في جهازه العصبي، عضوه رغم عدم وجود إغراء أنثوي أنتصب من داخل بطاله، فأخرجه وبدأ يلعب به متخيلاً ضوءً لا منتهيا في أفق الحياة حتى قذف منتشياً برعشةٍ كبيرة، وإذا به يضحك ضحكته الثالثة، ضحكةٌ خرجت دون إرادة أو بكل الإرادة، لا فكرة، لا بحث، لا فضول، لا تملك، لا هرب، لا قدر، لا زمن، لا مكان، لا أحد، لا قضية، لا شيء، حتى دون الشعور باللحظة، ضحكة أعلى من اللحظة، أو هي كل ما في اللحظة من حياة، أكمل زغروس ضحكته بفرح طفل وبرغبة شاب وبجنون رجل وبصمت ميت، أكملها بكمالية ضوئية

وبشاعرية إنسانية وبنبوءة كونية، ثم أعاد قضيبه الذي تدلى ضعيفاً إلى داخل بطاله، وتمدد في مكانه عدة دقائق، أشعل السيجارة التي كانت لا تزال في فمه، دخنها بنشوة مجنونة، ثم انبثقت رغبة غريبة في داخله، فقفز من مكانه ناظراً إلى ظله بتجريد شديد وبقصدية قصوى وبشهوة فضولية وبحساسية مشتعلة، ثم صاح بصوتٍ شغوف

-أنا حاضر، أنا حاضر

10

ماذا الآن؟، أطلق تنهده عارية من الشعور، ألقى نظرةً واحدة على كل الأحداث والوجوه والمشاعر التي مر بها منذ أن سرق المجهول منزله، حتى منذ رؤية تلك الشجرة التي في زاوية الشارع، بل منذ وجه زميله في العمل، التكوين الغريب للبداية، الصعود العجيب، الصدف، الأهواء، الألغاز، الألغام، المواجهات والصدامات، المشاجرات المشحونة بقوة غير مفهومة، الحماقات المتسرعة، الخلجات المتولدة في لب اللحظة، الصدمات والنوبات، سيلان الدم على المشاهد، النهايات المفاجأة، الأعصاب، صياح غمكين واختفائه، جسد بيلان وصمتها، اليد، المكان، المنزل، المجهول، المجنون، الصور، الروائح، الحركات، الانطباعات، تغيرات الحساسية، تطورات البصيرة، الأنا التي سارت في سيرورةٍ مثيرة للشغب والعبث حتى صارت هذه الأنا التي تتحدث الآن، وبعد العتمة والحضورية، لم كل هذا التغيير المثير للجدل؟ كان من الممكن أن تكون الأنا الآن نائمة في أحلامٍ سخيفة وتنتظر من الساعة صوتها حتى يبدأ يوم عملٍ عادي ككل الأيام الرتيبة، كان من الممكن أن تسمع موسيقى جيدة وترقص مع الجسد قليلاً ثم تشبع، أكان يجب كل هذا العذاب الجدلي؟ إن إباحية اللحظة تفتح فوهة الجهات على طرق كثيرة غير متوقعة وهذه هي حرية الكائن في الزمن، كيف يُرتب كل شيء؟ ترتيب المشاهد والأحداث والوجوه كسلخ الكينونة من الهواء، كيف أسيطر على حاضرٍ يمضي في ذهني

بمساعدة الذاكرة الشعورية وهو ذاهب رغماً عن إرادة اللحظة؟ ماذا لو ضحكت علي هذه الذاكرة؟ ما حقيقة كل ما حدث؟ ما هي الحقيقة من كل ما حدث؟ من كنت حين كنت أستعمل صوتي وأفكاري؟ هل كنت شخصاً آخر دون أن أدري؟ هل حقاً يمكنني معرفة الكينونة في لحظةٍ تلاشت في غياهب الزمن؟ من كنت؟ فيما كنت أفكر؟ ما الأمور التي تغيرت نظرتي إليها أو تغيرت هي في نظرتي؟ أرى الآن صورة واحدة لكل ما حدث فهل هي حقيقة وكاملة؟ ما الأمور والأشياء التي نقصت، حقاً لم كل هذه الأسئلة وهل يوجد رابط بين أسئلتي وحاضري؟ وهل يوجد رابط بين سؤالي العام هذا وبين كل ما مضى؟ إن وجه الفكرة تتغير، ما يثير الإزعاج هي هذه الحركة التي تتغلغل في كل الأفكار، حتى هذه، حسنا سأعيد التفكير.

ومضى زغروس في جدله الكبير بأسنان الأسئلة وأشواك الشك، هذا الشك الذي انفجر فيه في لحظةٍ كان يمكن أن تكون حاسمة ليمضي في طريقه الذي لا يعرف بعد أين يقصد، هذا الشك شخصي، مفرط في الخصوصية والحساسية، وبخفةٍ عاد يتصور آناه في المشاهد الماضية، محاولاً التشبث بالكينونة، إلا أنه ضاع أكثر حين أكتشف

الفوارق الهائلة بينه الآن وبين من كانه، أحس أيضاً بلذة ما في تخيل المشاهد لكنه شك بنقصانها في الخيال، حاول

استحضارها كما كانت وعجز في ذلك، وفي الأخير ترك كل شيء على حاله أو على نقصانه، لكنه أستمر في الأسئلة بعناد صلب، إن كنت لا أدري تماماً من كنته فكيف سأعرف من أكونه الآن في المستقبل أو حتى قبل لحظات ؟ إن لذة تخيل الماضي مخادعة في علاقتها باللحظة، الحنين مرضٌ فتاك، الذكريات أسنانٌ حادة تعض لحم الحاضر، والماضي كالتاريخ يجب أن تكون أبوابه مفتوحة دائماً، تفتح لذة الحنين المشوهة هلوسةً في اللحظة، تشتت الكينونة، علي أن أكون حذراً، فتذكر الماضي هو كرهٌ للحظة، بتالي للحياة كلها، لحظتي لي، أنا أكون، اللحظة عماد الكينونة، كما أن الحكم على الكينونة الخاصة في الماضي هو حكمٌ ناقص، والأسوأ إنه حكمٌ متعصب، يضع جدراناً وسقفاً حول الكينونة، لا يترك للشخص حرية أن يتغير ويتطور، يسلب حريته في أن يكون، أي أن يكون في اللحظة كما يكون، صافياً، عارياً من الزيف، متجدداً، ناظراً إلى جمال اللحظة، الحكم يجبره على الكذب الذاتي ليكون آخراً، يخنق عليه لذة البوح الخلاق، لذة الصدق الصافي مع اللحظة، لذة الخصوصية، رؤية الماضي الشخصي معارض للكينونة واللحظة الخاصة.

أشعل سيجارة أخرى بعد انتهاء سيجارة التي كانت في يده، هز رأسه بحركة خفيفة، هدأ قليلاً من عبثية الأسئلة، وكان

ثمة ضجيج أصوات بشرية غير مفهومة في خارج المبنى لم يهتم بها، وحينما دخن أخر نفسٍ من السيجارة وجد أمامه أجساد بشرية تلبث ثوباً موحدا، كتب عليه (الأمن).

11

بخيال جامح يهرول زغروس في صور ذاكرته عن جثة شجرة الشارع التي كانت مقطوعة حينما تم أخذه بسيارة الأمن، عالق في صميم تفاصيل تلك الصور، لم يكن حزيناً، كانت الصدمة تنخر مشاعره، تلك الصدمة التي تقول بصوتٍ منتحب لم أيها الكون؟ الطرح المتغلغل في كل المعاني، إنها نوبة الاكتشاف الصادمة، صعقة الصدفة، هكذا كان بعيداً، غائباً عما يجري حوله من أحداث، وبوجهه البائس -الذي لا يتطابق مع أسرار لحظته الداخلية- يحتل صمتاً عالياً في لغة الواقع، أعلى من الغرفة ومن أذهان المتواجدين فيها، لم يكن بعد قد اجتمع في ذهنه معطيات وأحكام، لا شيء مفهوم، ليس مدهشاً ذلك، إنما غريب، غرابة سكون الجثث، غرابة لا تشبه ولا تمثل بالصورة والفكرة واللغة، حتى إنه لم يرغب في فهم شيء، إن سوء فهم المشاهد الغريبة أكثر قبولاً وحسناً من وضوحها وفهمها، فلتكن الأحداث هكذا، دون معنى، ومع هذه الفوضى الذهنية هو الآن جالس على كرسي معدني مهشم، يسمع همسات لفظية غامضة من عدة رجال في زاوية الغرفة، عتمة جزئية، إضاءة خافتة، طاولة في منتصف الغرفة وكرسي فارغ أمامه، روائح سيئة تدور فوق رأسه، ارتباك خفيف في قلبه، غثيان بركاني في معدته، مشوش جداً، صامت حد الصرخة، ليس خائفاً، لا ذنب ينهش صدره وضميره، لحظته ترتجف في كيانه، اللامعنى يقبض على المشهد بأكمله، جاذبية المكان مزعجة،

الجدران ضيقة، السقف ثقيل، الهمسات سخيفة، والصمت الذي هو عماد الوجود يطبق على البصيرة، تلك الشمس التي تذوقها لم تعد موجودة هنا في هذه الغرفة التي تخنق الشموس وتسلب منها الضوء، أما الآن، في هذه اللحظة البركانية، لم يكن يرغب في شيء سوى سيجارة، سيجارة واحدة ولتنتهي الحياة بعدها، كان ثمة خلود أبدي في هذه السيجارة المتخيلة، الإحساس الكثيف بالغاية، تطابق الغاية مع الإرادة، إنجاز اللحظة، تصالح القوة مع المعرفة، الإحساس بالسلطة الإنسانية على الكون، توجد في هذه السيجارة تحديداً قدرة على توحيد البشرية بأكملها رغم كل العقائد البهيمية التي ترفض وحدة الإنسان، إنها سيجارة الأبدية التي خلقت الأبجدية والموسيقى والمعنى والإيمان، رغبة الإنسانية في الولادة مراراً وتكراراً رغم ضخامة وقسوة المعاناة البشرية، إنها سيجارة واحدة وتعود الحياة هادئة، طيبة، بسيطة، شفافة، قابلة للعيش، يمكن بعدها أن يولد الكثير من الهواء النقي في اللحظة، يمكن أن يتدرب زغروس على التوحيد بين الواقع والإرادة واللحظة، يمكن أن تبدأ حياة جديدة، أبدية جديدة، رغبة جديدة، زغروس جديد، وممكنٌ جداً أن تكون للمعاني صدى أعظم، للموسيقى حضور أصدق، لكن ليس ثمة سيجارة الآن، لا يد، لا ابتسامة، لا ضحكة ترتجل من هذا المشهد الكئيب، لمس زغروس جوهر الألم في رغبته هذه، إنه يعاني من أجل سيجارة، رغبة أن يعود، أن تمتلئ رئتيه بالمعنى، أن يخفق

نبضه وهو يبصر تجليات الحياة في اللحظة، كأنه أنزل إلى قعر الألم، تماماً عند مستوى الأول من اللذة، لذة الحاجة البدائية، قبل ألاف السنين، في المصارعة الأولى للإنسان الأول، عند نضوج بذرة الغاية التافهة، حين لم يستطع الكائن التفكير إلا في تحقيق شهواته الحيوانية العادية، حين كان يفرح بالطريدة ويتلذذ بالأكل، إنه حيوان رغماً عنه، تلك حقيقة مزعجة لكنها حقيقة، كل الأسف، تتلاشى أضواء الجمال، تعصر الطبيعة إرادة الكائن، فجوهر الألم أن لا يوجد أعتذر على كل ذلك، لم تترك الطبيعة للإنسان سوى العزاء النابض في الموسيقى واللحظة، لكن ليس كل إنسانٍ يفهم الموسيقى، ولا كل إنسان يسمع صوت اللحظة، حتى الذي يفهم ويسمع يعرف أن جزءً كبيراً من العزاء هو خالقه، في مرآة البصيرة، جوهر الألم هي سخافة أن تنقذ سيجارة شعورنا بالحياة، ما المعنى من تعالي السيجارة على المعنى؟ أليست تلك رجة القهر في لب المعنى حين يغدو الكون كله صامداً على سيجارة واحدة؟ حين تأكل العتمة أعضاء الضوء وتتسلط المعاناة على وحدة الوجود والكينونة والأبدية، داهمه فجأةً احساس مضرج بالغياب، نظر إلى غيابه في المرآة، لا وجه، لا ملامح، لا ابتسامة تخلق نبض اللحظة، لا ابتسامة مشبعة بالموسيقى، لا ابتسامة تعمل على تنسيق الملامح في وجهه، لا جسد مرئي، غائبٌ عن الحياة المرئية، لا يرى من جسده وهجاً، هو لامرئي تماماً، في غيهبٍ مكتظٍ بالعتمة، كان يهرب من العتمة الآن هو

العتمة ذاتها، هو ليس زغروس، لا ذاك الذي يعيش على خبز الموسيقى وماء اللحظة، لا شيء هنا، لا هو ولا أي شيء آخر، فقد توازنه، ضاقت عليه الغرفة أكثر، سمع وقع خطوات حوله، خرجوا جميعاً، بقي واحد فقط، هل هو حقيقي أم يتخيله، لم يعرف عن ذلك، كل ما في الأمر أن ثمة أحد ما يقترب، ها هو يضع يديه على الطاولة أمامه، قد يكون الآن يحملق في ملامح زغروس، لم ينظر إليه، كان مشوشاً، غائب الوعي، يكاد يقع، مع أن آخر سيجارة دخنها كانت قبل ساعة، حين كان على سطح البناية، انكمش على نفسه، ضاع، كأن ثمة حجارة فوق صدره، السيجارة هزت كل كيانه، كل الهواء حوله، كل الضوء، أحس بأصابع الموت على جسده، ثمة موتٌ يمارس عليه، ثمل بالفراغ الذي يشوش كل شيء في ذهنه، الغرفة ثقيلة جداً، جسده يتعرق كثيراً، الطقس حارق، يود لو ينتهي كل المشهد الآن، يهرب بطرق ضعيفة، كأنه يزحف على تراب الأرض، يقترب ذاك الشخص أكثر، يلاحظ ذلك رغم كل شيء، يلاحظ أن ثمة حركة تدور وتتذبذب في الهواء صوتاً ضعيفاً، ها الآن يسمع حشرجة نار، أشتعل شيء ما، ثمة وهج خافت، يشم رائحة دخان، هل هو حقيقي أم متخيل؟ أين يخلق هذا الحدث؟ في أي ميدان؟ الرائحة صارت قوية، لم يتصالح بعد مع الحدث، فروق بين داخله وخارجه، شعلة نار تقترب من وجهه، شيء ما يلامس ثغره، إنها سيجارة، حقاً هي كذلك، التصقت بشفتيه، أمسكها جيداً، سحب نفساً، حبسه في صدره مدة

جيدة، أخرج زفيراً طويلاً، سحب الدخان مجدداً، ومرة تلوى الأخرى، هكذا حتى دخن السيجارة كلها، بنشوة بدائي، بدأ ينتشي، ذهنه عاد ينشط، الدورة الدموية انتظمت، قلبه ينبض بحب، رجفة ساخنة في جسده، حرك جسده بإرادة، مسح العرق من على جبينه، نظر حوله، أمعن في الواقف أمامه، الصورة تصبح أوضح مع مرور اللحظات والثواني، ارتياح طفيف، عودة جيدة، استعاد جزءً من توازنه، هدأ قليلاً، ذاك الشخص لايزال ينظر إليه بتسلط، يدخن أيضاً، هل اقترف شيئاً ما؟ ماذا يفعل هنا؟ لم هو؟ ماذا يجري هنا؟ همهم ذاك الشخص، من الواضح إنه محقق، محقق بارد، مزعج، سلطوي، سيحقق في ماذا؟ عدل زغروس جلسته، استيقظ جيداً، بنسبة تجعله يلاحظ الأحداث والأصوات في المشهد، راقب تحركات المحقق، ما هذا؟ إنه لا يمتلك شيئاً في داخله، خارجه مجرد جدار، لا ملامح تفضي إلى متاهات وعوالم، لا أفكار في ذهنه، مجرد حي دون حياة، مقلد، مكرر، تلقائي، غايات واضحة، سخيفة، يطبق القواعد هكذا، دون أن يقول شيئاً، دون أن يوجد، طقطق بأصابعه الخشنة على الطاولة، خشب يدق على الخشب، فتح فمه، يريد أن يقول شيئاً، دخن آخر السيجارة، رمى العقب على الأرض، حك جلد رأسه، يلبس ثياباً فضفاضة، فرقع عظام رقبته، سيقول شيئاً، إنه لا يدري كيف يبدأ، ربما يتخيل مشهداً ما، نظر إليه زغروس منتظراً، معبراً عن انتظاره السخيف، هناك فوضى تجري هنا، كيف يفكر تجاه زغروس، إنه

يتحرك في الغرفة حركات سخيفة ومستفزة، الطقس يشتد ضجراً وحرارة، يكاد المكان يحترق، زغروس يتعرق كثيراً، هو أيضاً، سخافة، المشهد سخيف، لم يحدث بعد شيء مهم، لا حدث يثير شيئاً ما، رائحة الضجر تفوح من كل شيء، من العتمة، من الطاولة، من السجائر التي على الأرض، يمسح زغروس جبينه مجدداً، عرق، جسد منغمس في العرق، عرق في الصورة، في المفاهيم، خيال متعرق، لاشيء، هواء معفن، يوجد غبار كثيف في الغرفة، غبار الأحذية، غبار دخان السجائر، إنه يتحرك كثيراً، لم يدري بعد ماذا يقول، ربما يعرف، قد يبدأ في أية لحظة، زغروس منزعج، مختنق، أسئلة، غرابة، لا وضوح، قرب المحقق الكرسي، جلس، حرك رأسه، إنه مرهق، ربما لم يمارس الجنس منذ شهر، سيفتح أبواب كبته، سينتقم من زغروس، ربما مارس في الصباح، قبل أن يأتي إلى هنا، إنه متعب، لم يشبع، ربما لم يشبع زوجته، إنه متزوج، ذلك واضح، امرأته تزعجه كثيراً، لم يمارس الحب بعد، يعرف أن حياته سخيفة، منتقم، ينتقم من كل شيء، من نفسه أيضاً، مسد جفنه، حرك شفاهه، سيقول شيئاً، كأنه سيتقيأ، أطلق تنهيدة طويلة، أخرج سيجارة جديدة، أشعلها، نطق وهو يطلق الدخان بزفيرٍ طويل

ـ سيد زغروس من أنت؟

فكر زغروس، ماذا يقصد؟ إلى ماذا يفضي السؤال، هل هو عتاب، ربما فضول، غرابة، سؤال عقابي، ربما حقاً هو إنسان وتهمه أبعاد السؤال، سؤال ثقيل، كبير، يفضي إلى عوالم وأضواء كبيرة، يمكن لأصوات كثيرة أن تجيب، أن تشبع السؤال بجواب، تجول زغروس في ذهنه، ماذا يريد هذا؟ نظر المحقق إليه، نظراته ثاقبه وقاسية، حرك شفاهه

- نعلم جيداً من أنت

ماذا يعرفون؟ من هم؟ من الأنا التي يعرفونها؟ إلى ماذا يشير؟ ثمة معلومات في ذهنه، لم أنا؟ ما هي رغباتهم؟ إنه متأكدون جداً، هذا مثير، مزعج، مقرف، إنه يعاقب، لم؟ عما؟ رنة صوته خشنة، ستخنقه إذا حبس صوته لمدة يوم كامل، صوته ثقيل على أوتاره، أوتاره قديمة، إنه لا يسمع موسيقى إذن ليس لديه صوت، صوته مكون من رتابة الأحداث العادية، من أصوات السيارات والمصانع والمواضيع السخيفة، لم يتحدث مطلقاً عن الحياة، إنه لا يعيش بل يستمر في النمو مع الزمن، كأي عشبة، كيف يتحمل نفسه؟ كيف يتحمله المكان؟ لا يمتلك لحظة، يمتلك غايات شهوانية عادية، يلهث إليها كما يجري الأرنب إلى الجزر، لا يستمتع بشيء، قد يستمتع بالكيماويات والكحول الرخيصة، لم يتأمل في شيء، لم ينظر إلى السماء كل حياته، سكن زغروس فضوله وضجره، قال بصوت خافت

- ماذا يحدث هنا؟

انطلقت كلماته، إشارات فضوله، همهم المحقق، تنهد، عبر عن انزعاجه، حرك يده، لمس سطح الطاولة، اختناق كئيب، غرفة عبثية، إذا به يحرك يده، صفع زغروس بقوة، هكذا، فجأةً، تحول المشهد، أشتد اختناقاً، صدمة غريبة، عيون زغروس سكنت على جهة اليمنى من الغرفة، لم تتحرك بعد الصفعة، دخان على خده، علامات الأصابع، توقف النبض عن الشغف، عتمة مقيتة، قام المحقق يدور ذهاباً وإياباً في الغرفة، أمام عيون زغروس، صدر زغروس يصعد ويهبط بسرعة، أحس بالإهانة، كأن ماءً بارداً سقط عليه، كأنه ذبابة أو أقل من ذلك، طغيان أعمى انفجر فيه، جسده يرغب بضرب نفسه بالجدران، أن تأكله الجدران، أن يأكله أي شيء، حساسيته اشتعلت، جنون ما يعبث في ذهنه، هو أقرب من سفك طاقة الكون كله، أراد الانتقام، مما؟ لا أحد هنا، لاشيء، تلاشت رغبة الانتقام، لا خصوم، فراغ شاسع يلهو بالمشاعر والحساسية، أحس بالضعف، أراد الوقوف، دون إرادة فعل ذلك، لكنه عاد يجالس، مجرد حركة بهلوانية مؤسفة، الدماء تجري بسرعة إلى قلبه، لحظة مستبدة، الجدران تخرج له لسانها بسخرية، السقف يتهكم، الأرض تضحك، الطاولة جامدة، ساكنة بصمت مهيب، الخشب متعب، ثيابه ضيقة، جلده يغرس، عظامه ستنفجر، أعصابه تصرخ، هو صرخة صامتة بصدى عالي، ليس ثمة ضوء، التاريخ سن حاد، المكان تعب ثقيل، الإنسان صرخة، غياب، فراغ مشغول بالفراغ، مشاعر فوضوية تتلاطم وتتموج في

داخله، أفكار تخيط المشاعر على عجل، لا معنى في نبض اللحظة، تسرب، شغب، إعصار، أهوال من الرعشات الحادة السريعة، تفتت في أعضاء الكينونة، تحول إلى مدينة ممتلئة بالضجة الخانقة، خرق شيء ما، تمزق غشاء ما، كأنه فقد عذرية روحه، تزلزل، ضاع، مات، الموت يشاجر ظله، إهانة قاسية، جليد هائل ذاب في داخله، باطنه جحيم ملتهب يأكل كل المشاعر والأفكار والأسرار، صور تحترق، الخيال متخفي وراء الظلال، الطبيعة صفعة، نغمة بمسنناتها الحادة تصعد في البصيرة، الحدث عبارة عن معزوفة شديدة الأنين، أنين قاتل، ذات مذاق حاد ومر، إنه يعاني معاناةً قاسية لم تفهم بعد، عاد المحقق يجلس، ينظر بقرف، يشير بسبابته، يخرج صوته الحجري قائلاً

- جرحت وجه زميلك في العمل ثم بعد أن طردك مديرك عدت إلى المنزل وصعدت إلى جارك وربطته بالحبل وشرعت تغتصب ابنته ثم قتلتها في الحمام، لم تكتفي بذلك بل خرجت وضربت صاحب منزلك بعد أن طلب منك حقه بلطف وأحرقت شعر جارك المجنون لأنه طلب منك سيجارة ورميته على الأدراج، قل لي كيف يجب أن تعاقب؟

لم يفهم زغروس، عما يتحدث هذا، لم يرغبون بتخلص مني؟ ما هذه المسرحية السخيفة والضعيفة، كيف علي إيقاف هذه المهزلة؟ اكتفيت تماماً، غضب عارم، انزعاج صاخب، تفاهة، ماذا فعلت لهم؟ استحقار واضح، استحمار،

استغباء، قصة خرافية، لم ينطق زغروس، لم يعبر عن رد واضح، الوجه بين الانزعاج والكآبة والغضب، غريب كل ما يحدث، لا حقيقة في أية كلمة، الغرفة كلها من نسج الخيال أو ربما صناعة رقمية تحاكي الواقع، قد يكون الآن على السرير، تجرى عليه تجارب ما، غير سليم هذا المشهد، إنه مشروع غريب، غير مفهوم المقاصد، لكنه يحدث، هذا غريب، الغرفة واقعية جداً، ربما، هل الهواء حقيقي؟ ماذا عن السجائر التي على الأرض، ماذا عن هذا المقرف الجالس أمامه؟ ربما خياله صنع كل ذلك لأنه لم يدخن بعد، لكنه دخن سيجارة، ربما ثمة مخدر في تلك السيجارة، ضرب المحقق بيده على الطاولة، إنه غاضب، منفعل، تفوه يقول

- مللت من هذه الفئران، فلتذهب إلى حتفك

إنه يتحرك، يقترب، اخرج شيئاً ما من جيبه، إنه يلمع، إبرة، فجأة، حقن زغروس، تخدر جسده سريعاً، سقط رأسه

على الطاولة، ذهب في غيبوبة.

12

بهدوءٍ قلق استيقظ من غيبوبته القصيرة، فتح عينه اليسرى فرأى السقف فوقه ثم أغلقها بسرعة، حرك جسده عدة حركات بسيطة، أحس ببرودة العرق على جسده فعرف إن الزمن لم يمضي كثيراً، ربما عشر دقائق أو أقل، لمس ما تحته بيده، إنه سريرٌ مريح نوعاً ما، حتماً هو في سجن، في مكان ما، في زمان ما، في قصة ما، ما كان يجب أن يكون السرير مريحاً فهذا يزيد الأمر غرابةً وجنوناً، أدرك زغروس بأن الأمر غير منطقي، ثمة خديعة فاضحة وواضحة، وحتى قبل أن يفكر في عدالة ذلك، عاد يفتح عينه اليسرى على السقف فوقه لكنه مجدداً أخفق في العودة، أفكارٌ تعلق في ذهنه، تسحبه من المكان، تجره وهو يحاول الهرب، سؤاله الأولي خرج يعوي في وجهه، ماذا يحدث هنا؟ موسيقى صاخبة تثور في أعماقه، شجارٌ عنيف بين النغمات، لا يتمثل الإيقاع سيرورةً مفهومة، عبثية عارمة في الأحاسيس والخلجات، أعاصير من الفوضى، الوجود الآن موسيقارٌ مجنون والزمن سلطة طاغية، مرت صور سريعة في ذاكرته، صورة الشمس، صورة بيلان، صورته وهو يركض على الأدراج، صورته حين كان أمام باب بيته، ترتطم الصور ببعضها وينشب غبارٌ عالي في معنى كل ذلك، كل ما شعر به وفكر فيه وجربه ضرب بحائط الهباء، لم يعد

ثمة شيء يحدد، غدت الحياة صورة مجهولة أكثر من اللازم، أكثر من جهلنا الأصيل بها، تعالياً على الحواس والحدس، ماذا عن صيرورة كينونته؟ هنا كاد زغروس ينفجر، يجن، يصرخ، كيف يمكن أن لا يكون هنا ولا هناك ولا قبل لحظته ولا بعده- في الماضي والحاضر ونحو المستقبل - ؟ ألا يكون قد عايش كينونته الحقيقة في الحياة إذا سلمنا أن كلام المحقق هي نظرة خارجية، أهي صائبة؟ أيعقل أن يكون الوجود شرساً لهذه الدرجة القصوى إن كان ما يقوله صحيحاً، ماذا عن الهواء الذي لامس وجهه، عن الضوء الذي عانق ملامحه، عن قلبه، عن نبضه الملتصق بالحياة، عن شعوره المرتبط باللحظة، عن عيونه وهي تسحب الجمال من جسد بيلان، عن الأصوات التي تعيش في الذاكرة، تخيلاته وتصوراته عن الحركات واللحظات، انطباعاته عن كل ذلك، كانت الذاكرة سابقاً تشيد الأدراج أمام اللحظة الحاضرة الآن فهي صفعة عبث، سكين حاد في القلب، ما غاية الطبيعة؟ ما غاية المكان؟ ما غاية الزمان؟ هل يوجد غاية أم يمر كل شيء بفوضى جدلية؟ ما ضرورة أن يتسابق الحاضر مع الماضي في دوامات الزمن، والآن، أيهما سيكون؟ القاتل الذي دون باطن ودون تاريخ أم زغروس الذي دون ارتباط حضوري بالواقع؟ لم يعد حاضراً بعد الآن، شرخٌ عظيم بينه وبين المكان، بينه وبين الزمان، لن ينسجم مع إرادة اللحظة، مع جمال الطبيعة، مع حضوره في الحياة، أيهما سيكون هل يوجد حل لهذه المعادلة؟ هل

يوجد علاج لهذا الجرح الذي فتح بغرابة صادمة؟ أطلق زغروس تنهده كبيرة، تنهده على هذا الشغب الباطني، سمع أصواتاً في داخله، تخيل زميله في العمل يئن بعد أن جرحه، غمكين يصرخ ويتألم أثناء مشاهدة أبنته وهي تغتصب، بيلان ترتجف بدمها في البانيو، المجهول، المجنون، أنين وصرخات وصخب معصور في صوتٍ قوي يتعالى أعلى من صور ذاكرته، هز رأسه، أنكر، لا يمكن أن أفعل ذلك، ثمة حلقة ناقصة، قد يكون المحقق كاذباً، إذاً لم هو هنا؟ تسرعت نبضات قلبه، شعر بثقل الكون كله في كيانه، أطنان من الأثقال تسقط عليه، تتفتق جروحٌ كبيرة، يقفز الدم الممزوج بالألم على ميادين الباطن، نيران تشتعل، شغف صاعد، فوضى عبثية، تتناثر الحياة، تتلاشى أجزاء، تطحن أجزاء، جنونٌ يهب من مركزيته، ضباب، رياح، أهوال من الحرائق، الصور تصطدم بالمفاهيم، الأشكال ترتطم بالروائح، الأفكار تتعارك مع المشاعر، دخل الزمان في ثقب المكان، سقط المكان على ألوان الزمان، الفناء يتربص بالجمال، العدم يغرس صياحه في قلب الوجود، الباطن عبوة ناسفة، اللحظة تمزق، تشوى، تتفحم، اشتدت أعصابه، جسده متصلب، محنط، لم يفتح عينيه بعد، وجهه منكمش، سريره مازال مريحاً، هز رأسه كثيراً، أكثر مما يهز الوجود الإنسان، بتلك القوة المجنونة، حرك أصابعه وزراعيه، أستخدم لغة الأصابع، متخيلاً العتمة، لمس على طرفه الأيمن صلابةً دافئة، تحسسه أكثر، إنه جدار بجانب السرير، حرك جسده

باتجاهه، فتح عينيه، تأمل في بياض الجدار، بقربه، على السرير، بجانب رأسه، وجد أوراق، نظر إليها كثيراً إلى أن أثار الفضول لبه، شرع يفتحه بصوت خافت، لم يكن بعد متحمساً لمعرفة كل ما في الغرفة، يجهل تماماً، مازال واقفاً بجانب جهله، لكن الآن ثمة صاعقة جديدة، الأوراق، ما أن لمسها حتى أحس بدهشة طفولية بريئة، صار طفلاً، في الأوراق عبير بديع، بيان من الرائحة العطرة، لكنه ليس بالجديد، إنه مألوف جداً، كاليد، كالابتسامة، كالقبلة، كالشمس، رائحة تدخل في الباطن بسرعة، ليست بغريبة غرابة المكان هنا، وهذا أيضاً غريب، شمه أكثر، تكلمت الذاكرة، إنها رائحة بيلان، هي بذاتها، رائحة جسدها، رائحة التجربة، الجمال المجرب، المحسوس، مجمع الحواس، مفجر الحواس دهشةً، ارتبك بخجل، فرح دون أن يدري كيف، رغماً عن المكان والزمان، رغما عن القضية والسجن، عن الصرخة والذنب، فتح الأوراق على عجل، تنفس الصعداء، غبطة توهجت في كيانه، بلع ريقه وشرع يقرأ بهدوء لذيذ، كمن أتاه ما ينتظره

(عزيزي صاحب الملامح الغريبة والقضيب المغرور، إن وصلتك هذه الرسالة إذن أنا ميتة، نعم هذا ما حدث لتلك الطفلة المندفعة نحو الحياة والهاربة من صمتها، قتلت نفسي أو ربما الصمت هو من قتلني، كنت ضائعة في غابة مظلمة، لا أحد حولي، أنت خرجت وأبي لم يعد، صار كل شيء حزيناً، حزيناً جداً، ربما أكلني الحزن لا الصمت، لا

أدري عما كنت أبحث ولا مما كنت أهرب، كنت أريد أن أبكي كثيراً وأضحك كثيراً، كنت بحراً يخاف الشمس، كنت سماءً تخاف الأرض، كنت أرضاً ترفض قلبها، حزينة وساخرة من حزنها، هذا كان مرضي الذي يفتت قلبي ويبعثر ملامحي ويكبت صوت جسدي، عشت لأرقص فوق كل شيء، أنا راقصة البحر التي رفضه البحر فأخذت تضيع على اليابسة، أنا التي كانت لا تدري إن كانت تكره المرآة أم تحبها، اللغة كانت تنفجر في داخلي، لم يكن ممكناً أن أتكلم عني وعن جسدي، كل كلامي كان هروباً سخيفاً مبتذلاً، اللغة كانت تنفجر عن وحدتي، تقول وتشير إلى وحدتي كل الوقت، تريد أن تكشف لي وحدتي في المرأة، فهذا ما كان يبعدني عنك وعني، كان من الممكن أن نصارع الحياة معاً لكننا تصارعنا ومزقنا الروابط كلها، أنت إلى منفاك وأنا إلى صمتي، إلى ما أهرب منه، كنت محقاً حين قلت أن ثمة فصول أخرى في الحياة، كنت أنت تذهب إلى الموسيقى، تتعالج بالموسيقى، وأنا كان علي تقبل الصمت والذهاب إليه، كان يجب أن أتعالج، لكنني تمردت على صوت المرآة والمطر، على لمعان البحر وزرقة السماء، نعم كنت قريبة من المرآة والمطر والبحر والسماء لكنني كنت بعيدة في الوقت ذاته، كنت بين طريقين، تائهة أكثر من تيه الحياة عن الحياة، ثم في الأخير مت بالصمت المفجع، أتاني فجأةً كالموت تماماً، وكما قالت الإشارة مت وحيدة، وحيدة حتى عن نفسها، لست الآن أبالي بشيء، تلاشت الحياة كلها، أنا الآن خلف الحياة، في

اللامكان، أو في أماكن الموت، هنا لا أحزان ولا أشخاص ولا أحداث، لا جسد ولا روح، لا شيء يتكرر إذ لا شيء يجري في الزمن، لا زمن ولا مكان، أنا وحدي، أنا التي كانت صامتة كل حياتها، أنا الدرامية والخفيفة، النشيطة والهاربة، المتلذذة والمتألمة، الجميلة والقبيحة، أرى كل قبحي وجمالي، لا أرى فروق بينهما، أنا هنا مع كل ما عشته، أرى كل شيء لحظة بلحظة، حركة بحركة، الحجارة والماء، قطتي وصندوقي الفارغ الممتلئ بالصمت، ليس بتكرار مزعج إنما بتكرار لذيذ، أفرح كلما أشاهد كل حياتي من الولادة إلى الصمت، من البكاء إلى الوحدة، من الحياة إلى الموت، أفرح مع جسدي ذاك، جسدي المقدس، الذي كان يحاول خداع المكان والزمان، خداع كل ما يمنعه عن الحياة والتعبير والرقص، وثمة ميزة أخرى، يمكننا نحن الأموات أن نكرر مشهداً واحداً كثيراً، لهذا أنا أقضي كل لأوقتي في رؤية جسدي يرقص، يرقص مع الأشجار والرياح، أنا حرة..)

سالت الدموع على خدي زغروس سيلان الحب من القلب، غمرته نوبة بكاء عنيفة، فاض ماءً على كيانه، عاد يقرب الأوراق من أنفه مستنشقاً بشراهة عنيفة حاضناً كل الرائحة المتطايرة من الأوراق، كالطفل، كالمجنون، كالراقص، رقص مع الرائحة رقصة الوداع، رقصة العزاء، لا موسيقى في الأرجاء، الغرفة مزدحمة بالسكون، رائحة بيلان هي موسيقى التي يرقص قلبه معها، ربما يكون آخر الموسيقى،

آخر ما يخلقه كائنٌ لآخر، آخر العزاء الغيري، لقد انتهت برائحة وأوراق، بصفعة على خد الهواء والسجن، نوبة تمرد على صراع الحياة والحضارة، انتهت بموتٍ وغربة، بدمٍ وغرابة، بصمتٍ وتهمة، تحولت هذه القصة إلى معزوفة في الذاكرة، يعزفها الخيال حين يطير الدخان من الواقع، حين تخنق الجدران صدى زغروس، أغمض زغروس عينيه، مسح الدمع عن ملامحه، أقفل صفحة الذاكرة على عجل، نظر في الأوراق مجدداً فرأى في الصفحة الأخيرة كتب عليها (أنتبه من اللعبة عزيزي)، تفكر في المقولة، تعجب، شك، ثم وإذا به يبلع الأوراق بجنون، وقام بعدها عن السرير ناظراً في الغرفة، فصعق، تعجب، الغرفة ممتلئة بكل ما لذ وطاب، الكثير من الطعام والشراب، فاكهة وخضروات، طاولة عليها كل شيء، معطفه مصلوب بمسامير على الجدار، بجانبه دفتره وقلمه وعلبة السجائر، زهرته في زاوية الغرفة، الغرفة لا تشبه زنازين السجون، والأغرب أكثر من ذلك، مما جعله يصرخ مستغرباً، ثمة شخصان في الغرفة، ينظران إليه بصمت، إنهما غمكين وجاره المجنون.

13

إنـها اللعبة، الوجود هنا، هذا العالم، السجن الممتلئ والفارغ، لعبة محترفة إلى حد ينسى الإنسان لحظته معها، اختلاط عجيب بين التناقضات، بين الهواء والضوء، بين الألم والأبد، بين الجنون والعقل، بين الشعور والفكرة، كل شيء مقبول وفي الوقت ذاته لا يقبل هذا القبول، لعبة غريبة، تلعب عليك، وعليك أن تلعبها وأنت تدري كل الدراية إنـها مجرد لعبة لا تفهم، فروض عالية، أعلى من أن تصل إليها أياد البصيرة، وهذه الفروض هي الأشواك أيضاً، وهي الجدران أيضاً، وهي الأرض، على الهامش وعلى الصلابة، كل زوبعة في اللحظة هي شخصية جداً وغير شخصية ابداً، لست تدري كيف عليك أن تخرج إن لم تكن تدري بعد كيف دخلت، حتى قبل أن تكون، قبل أن تفكر فيك وأنت تنظر إلى مرايا الذات واللغة، مشبوهة جداً هذه الغرفة، التاريخ على لسان الدراما والعذاب، الزمن الذي لا يُرى يراك كما لا ترى وجهك، الهواء يصفعك، السقف يحبس أنفاسك، الجدران لا لغة لها، وتدور الحلبة في صراعٍ أحمق، إنـها تدور بك وعليك، لست إلا ذرة في هذا الكون الضخم، أتحس بهذه الإهانة العنيفة؟ لكنها ليست أقل إهانةً من صفعة ذاك الشرطي لزغروس، متساويان تماماً، تلك عن تقزيم كوني وهذه عن تقزيم عالمي، فالجهل المصمم في إبداع الإهانة يقفز من حدثٍ إلى آخر، من شعورٍ إلى آخر، وذلك أيضاً من قبولنا للعبة أو قبولنا للضربة اللامفهومة من الوجود، هكذا

هو الوجود هنا، ليس مفتوحاً، ليس ثمة تأويلات تقترب من جوهره -إن كان يمتلك جوهراً- إذ أن الميدان ضيق حد الاختناق، لكنك لن تموت بالاختناق بل ستستمر بالاختناق بعيداً عن عيون الموت، هذه اللعبة لا تقتل، بل تغير أساس الزمن، الشخص دائماً هو من يقتل نفسه، في الأخير هي لعبة، تلعب بالدم واللحظة أمام أنظار العالم والتاريخ، هكذا يصنع المكان نفسه كما هو، بكل هذا التعقيد والسخافة، لكن رغم جدية اللعبة إلا أن زغروس لايزال قائماً على مبدأ ما، يستمر في رفضه المعلن المكتوم في قلبه، يقول "لا" بكل ما به من ماء ودم، بكل ما به من جحيم وجنة، بكل ما به من صرير وصدى، ماذا عليه أن يفعل غير الرفض والمقاومة، أن يعبث بالهواء الذي يدخل إليه، أن يربط الخيوط بأصابعه الجافة، هكذا مر الصمت في ذهن زغروس وهو لايزال ناظراً في وجه غمكين وجاره المجنون، دون أن يكون الأمر مثيراً من جانبهما أو ربما أقل إثارة، أقل جدلاً، أقل غرابةً، أقل سخافةً، إنها اللعبة، لا أسئلة أكثر، سألعب إذن، قال لنفسه زغروس، بشجاعة، باندفاع، بانزعاج، بقلب محترق، لم يعد الأمر مدهشاً بل أكثر إهانةً، صياحاً، أو ربما دخولاً شخصياً في ما يحدث لشخصه، فليحدث ما سيحدث، هكذا دون رهبة، تنهد زغروس تنهيدة النهضة وهو يقول في وجههما

- ماذا الآن؟

لم يكن بعد قد فُهم معنى وقفته الغريبة وقوله السريع وإذا بغمكين يقفز عليه قفزة الفاجعة، بوجهٍ انفجر بكاءً، متلعثماً قال شيئاً ما لكن زغروس من المفاجأة لم يستوعب مقاصده، والمجنون الذي كان مشاركاً في المشهد الثلاثي أطلق ضحكةً ساخرة وهو يمسك بغمكين بقوة وجد بعد أن وجه صفعةً قوية لوجه زغروس

- يا عديم الرحمة، أيها المجرم البارد

تفوه غمكين بعد أن عجز عن الإمساك به وعاد يجلس وهو يبكي بشدة وهلع

- استرخي أيها المضحك

قال المجنون ناظراً في وجه الغمكين المبلل

- كيف استرخي وهذا اللعين أغتصب أبنتي الوحيدة، كانت كلي وكل حياتي، فتاة كالزهرة، مبتسمة دائماً، جميلة، إنها مصدر قوتي وبهجتي، صفائي وشعوري، أيها اللعين ما الذي دفعك نحونا، يا جارنا، كنت جاراً، أيها الرب ساعدني، كيف سأغفر له ما فعله هذا الوحش، أيها الرب كيف أدير له خدي الأيمن بعد أن مزق خدي الأيسر، كيف أقبل بهذا الجرح العميق، لم حدث ذلك، ألا ترى يا رب تعاستنا الكبرى.

أطلق المجنون ضحكةً هستيرية متهكمة

- أنظروا إلى هذا الملعون بما يفكر، لقد تركتك فهيا قم وأقتله وأشبع قلبك بالانتقام

أبتعد المجنون عنه بخفة فكاهية وهو ينظر إلى زغروس نظرات الابتزاز

- أيها البطل الآن عليك أن تفرح بما فعلته وتذهب أبعد بنشوتك العالية

نطق زغروس بصدق

- لكني لم أفعل ذلك

جلس المجنون على سريره جلسة الزعيم المتسلط ثم قال ساخراً

- أيها الأحمق أزلت تتعذب بين البراءة والذنب ولا ترى إننا جميعاً قتلى وأبرياء، مذنبون وأنقياء في الوقت ذاته؟

كرر زغروس جملته بانفعال وانزعاج مشدداً نبرة صوته

- لكني لم أفعل ذلك

تسطح المجنون على سريره ضاحكاً

- أه أحمق آخر يتلذذ بتعذيب نفسه

تأمل زغروس وجه غمكين المبلل وقال هامساً

- لكنني أعرف الحقيقة التي عشتها، إنها موجودة في داخلي.

قفز المجنون من مكانه نحو زغروس

ـ عما تتحدث، عن أية حقيقة، لا توجد حقيقة، لا بالذاكرة ولا بالحواس ولا بالعقل ولا بالقانون، الحقيقة هي أن ليس ثمة حقيقة، ثلة من الأذكياء يصنعون الحقيقة ثم يروجونـها في داخل الأمم وترى الجموع تلهث وتتحارب وتموت من أجل هذه الحقيقة المصنوعة، هكذا، في تاريخ من الأكاذيب اللذيذة، أما الحقيقة الثانية فهي اللاحقيقة

أقترب منه أكثر وقال

ـ حسناً سأصنع لك حقيقة الآن، أنظر إلى هذا الضعيف الذي يبكي في تفاهته هل تعلم إنه سيقتل نفسه ولن يقتلك، أتدري لم؟

نظر زغروس إليه مستغرباً

ـ لأنه يحس أنني لم أقتل أبنته

ـ بل لأنه كان ينتظرك أن تقتل أبنته حتى يعذب نفسه وهو الآن يحبك وقد يعبر بعد قليل عن حبه لك تجاه ما قدمته له، إذ كان يبحث عن طريقة ليقتل نفسه، إنه من الفئة التي

تبحث عن الموت لا عن الحياة، أنظر إليه إنه يبكي، كم إن دموعه مثيرة للضحك.

نـهض غمكين من مكانه متكلماً بقلبه المفجع

ـ كانت ابنة

عظيمة وكنت لها أباً عظيماً، فلتغفر له يا رب فأنا قد سامحته على خطيئته، أنني أتألم يا رب، أشعر بكل ما تشعر به، حقاً قلبي يتمزق على قلبك الذي أحترق وجعاً علينا، أه من هذا الألم العظيم

ضحك المجنون قائلاً

- ألم أقل لك إنه عبد رغباته المنحطة

أقترب غمكين من زغروس المتعجب اقتراباً لطيفاً ورحيماً ثم وإذا به يعانقه عناق الأب لأبنه، وبادله زغروس ذلك، صرخ المجنون راقصاً- علينا الآن أن نؤدي رقصة الحقيقة يا صناع اللعنة

نطق أحدهم في الزنزانة المجاورة

- يا عبيد الغرور أليس من الأفضل لو سجنتم وأنتم تفكرون وتثورون من أجل الفقراء

رد عليه المجنون صائحاً

ـ ماذا تفعل هنا، لم لا تعود إلى كهوف التاريخ يا عبد الضعف المبرر، يا كتلة العواطف الغبية، يا عدو الطبيعة.

رن صوتٌ عالي، إنها إشارة ما، رغبة ما ستطبق عليهم، لم يتوقف المجنون عن رقصته رغم ذلك، بل قال بلهفة عاشق

ـ وصلت الهدايا، وصلت الحقوق، وصلت الهبات، وصلت الحياة

نشب بين الزنازين نار أصوات أفراد الأمن وهم يركضون ويصرخون (أتت..أتت..أتت..أتت..كلٌ في مكانه.. في نفسه)، ثم بدأ التوزيع، قدمت أشياء غريبة إلى المساجين، حيوانات، أوراق، سكاكين، ألعاب، أسلحة، أجهزة غريبة، صور، جرائد، كأمرات، أجساد بشرية ميتة، صناديق مبهمة، شعل نار، أشياء منزلية، تراب، مياه، معادن، صوف، ذاك الذي صاح من الزنزانة المجاورة قدموا له الكثير من الأوراق المالية حتى امتلأت زنزانته فأختنق ومات وفمه مفتوح خارج الأوراق، حان دور زنزانة زغروس، وإذا بهم يجلبون قفصاً فيه دبٌ يتصارع مع القضبان، فتح أحد الأفراد باب الزنزانة ثم نادى

ـ من مجنون هذه الزنزانة ؟

رفع المجنون يده بفرحة عالية، أمسكوا به ورموه في قفص الدب، فبدأ الدب ينهش لحمه والمجنون يصيح فرحاً وطرباً،

كان صياحه بين الألم والفرح إلا إنه كان يتحرك كالمجنون بينهما، هكذا حتى أكل الدب الجائع أجزاء كبيرة من لحم كتفه وصدره ويده اليسرى وأطراف من ساقه الأيمن إلى أن صمت ميتاً، ثم عادوا مجدداً ومعهم هذه

المرة مرآة كبيرة، وضعوها أمام غمكين، نظر غمكين إليها نظرة مفجعة، أقترب منها، تراجع، ركض فجأةً نحوها وضرب رأسه بها ثم أخذ زجاجةً منها وشرع يمزق وجهه وجسده، وحمل الأجزاء الصغيرة عن الأرض وبلعها حتى سقط ميتاً في دمه، نظر أحد الأفراد إلى زغروس وقال

- حان دورك عزيزي اللطيف، تنفس جيداً

شهق زغروس شهقة كبيرة، وصل أحدهم ومعه صندوق صغير، دخل الزنزانة وفتحها ببطء، أخرج منه عقرباً أسود اللون، وضعها في زاوية الزنزانة، تحت المعطف، بجانب الزهرة تماماً، ثم خرج نحو الزنازين الأخرى، نظر زغروس نظرةً قلقة، تنفس صعداء، خفق قلبه بسرعة، رعشة ما كانت تسير تحت جلده، في أماكن عديدة من جسمه، أرتجف، أطلق تنهيدة حارة، كان لايزال ناظراً إلى العقرب الأسود، شديد السواد، متفحم، ساكن في مكانه، ذيله منتصب كالقضيب، ظهره مخطط ولامع كالوجود، رأسه مدور كالأرض، ساكن، لا يتحرك ويثير كل الحركة حوله، ثابت

ثبات المكان، كأنه يحرك جوهر القلق، شكله الكلي مربك، إنه أب الهلع و ابن المكان وطاغي الزمان، صمته احتيال وسكونه حرب كبيرة، مفجر القلب، العابث بأجهزة الإنسان، عدو الحساسية، مزلزل اللحظة، قاتل الحاضر، أكل الغد، ببلاغة القلق أبتعد زغروس قليلاً، رغم كل ذلك لم يرفع نظره عن العقرب، كان ينتظر منه حركة واحدة، يقول تحرك أيها اللعين، تحرك لأقتلك أو لأهرب، لأعرف ماذا علي أن أفعل، سكنته رعشة أخرى، حك عنقه بعنف، أزداد احتقاناً وغضباً، انزعاجاً وقرفاً، يقول للحظة فلتنتهي أيتها الثقيلة، عديمة الرحمة، عنيفة الجحيم، قاسية الطول، إنها لحظة مرضية، فخر النار باللهب، البرودة مع نقضيها، الحركة الكبرى في داخله والسكون الكبير في داخل العقرب، أشتد سواداً وهو ينظر، شد شعره من الغيظ، قفز فجأة نحو العقرب وسحقه بقدمه الحافي وهو يطلق لعناتٍ عبثية بصوته العالي، سحقه أكثر من مرة حتى تأكد من موته، ثم أطلق زفيره الطويل وهو يتمدد على أقرب سرير إليه تمدد الطفل في حضن الأم، وغاب في شروده الطويل للحظات متتالية هادئة، لم يفكر في شيء، كل شيء فقد الإثارة ولا شغف يتكور في قلبه، هكذا شارد تماماً في اللاشيء كبطل لم يعد يرغب بالانتصار، كغيمة لا مطر فيها، متشبثاً كل التشبث باللاشيء اللذيذ، إلا أن فكرة ما اقتحمت ذهنه، قفز نحو الصندوق، فوجد ورقةً في قعره، فتحها بلهفة وهو يعود مستلقياً على السرير، شرع يقرأ بسرعة

(قاتلي العزيز، أكتب إليك الآن وأنا ميتة، أكتب إليك دون أن يكون لدي رغبة في ذلك لكن النظام هنا يجبرنا على كتابة الرسائل للذين أوقفوا أصوات قلوبنا عن النبض، وأعترف لك إنني احتقرك بشدة لا تستطيع وصفها ولو حاولت كل عمرك الباقي، احتقرك كما يحتقر البحر اسماكه العنيفة، كما احتقر جسدي جسدك، كما يحتقر الشاعر القبح، أو ربما أكثر من ذلك، لكنني وأنا أكتب هنا احتقاري لك أطلب منك عدم التبرير، لا تبرر ما فعلته بي بحق ما تحبه في الحياة إن وجد شيء تحبه، لا تتفوه بشيء وأمضي في جحيمك العظيم، إنني هنا وعكس حياتي اللطيفة الهادئة في الحياة أمضي وقتي في لعنك ولعن كل هذه الفئة التي تمارس القبح بإرادة ودون إرادة، ألعنكم بكل أصواتي وحركاتي وصلواتي، بكل ما تبقى لي من دم وبكل ما نزفته مني، إنني المعذبة وسأظل معذبة لكنني أقبل ذلك إن كنت أشبعكم باللعنات، أنتم رغم حقارتكم إلا أنكم علاج وقتي هنا، فحين ألعنكم أرتاح، ربما المكان هنا يهبنا الأدوية الحقيقة، أنت دوائي عزيزي المغتصب وهذا ما يجعلني احتقر نفسي، أليس من الوجع أن يكون علاجي من مرضي؟ كان يمكنك أن تفعل أي شيء بي غير ذلك، كنت أقبل أن أعبدك كل حياتي فقط لو سقط ذاك المشهد عن مسرحية عمري ذات النهاية التراجيدية، ما ذنبي أيها اللعين، لم علي أن احتقر نفسي وأنا التي عاشت كالفراشات في الحقول، أنا التي عاشت طفلة بريئة في حضن أبيها الطيب، ما ذنبي أن أعيش كل هذا الوقت متخيلة

صورتك، حركاتك، قضيبك اللعين، عرق جسدك السخيف، لهاثك التافه، لعابك المقرف، مشهدنا المشترك، رغماً عني، ألا تشعر بالآسف علي؟ ما العزاء الآن؟ كيف تتحمل نفسك الآن ؟ أتتهرب من ذلك أم تفتخر بما صنعته، أرجوك لا

تبرر، لا تقل إن طبيعتك هي الحقيرة، لا تقل إن حياتك وما عشته هي أسباب ما حدث، لا تقل إن الطبيعة هي المسؤولة، من هي الطبيعة؟ من أنت؟ لا أريد أن أوسع دائرة الأتهام والمسؤولية بعبثية غبية، أنت هو المذنب، أنت يا من خرجت من الطبيعة، أنت مسؤول حياتك وأفعالك وأفكارك، أنت هواءك ومكانك وزمنك، أنت كلهم رغماً عنك.

دمت لعنةً تمشي على ثلاث..)

ضغط على الورقة بكفه، ضغط بقوة وهو يبكي بكاءً شديد الألم، بكى بصدق على روح هذه الطفلة، مصدقاً ما حدث رغم إنه لا يتذكر ذلك، محتقراً نفسه بقدر احتقار الفتاة له، بقدر حقارة ما حدث.

14

بعد مضي نوبة بكاء عنيفة وجد زغروس نافذة في الجدار لم يرها سابقاً، أتجه نحوهاً، نظر صوب السماء والغابة الكبيرة وهو يبكي بغزارة كثيفة كبكاء الموسيقى على القلوب واللحظات، أحس بنعمة النافذة، النافذة آخر العزاء وأول أنشودة الهواء، لمس أطراف النافذة برغبة ابن في عناق أمه، شعر بقلب النافذة، إنها عظيمة في وجودها قرب الحيوات والوقت والبشر، يمكنك أن تقول للنافذة ما لا تقوله لوجهك الفصيح إذ هي تعانقك دون أن تطلب منك شيء، دون أن تفرض عليك كينونة أخرى، ولا حياة أخرى، النافذة طريق نحو الحياة العالية، نحو اللحظة العظيمة، نحو الهواء اللطيف، نحو الزمن الأبدي، أو عودة إلى البداية، إلى الطفولة الحرة من السجون والقيود، إلى الأيام البريئة والألعاب الظريفة، إلى المرح العالي والضحكة الكبيرة، نظر زغروس إلى السماء وهي تحتوي غيوم متلبدة بالمطر، قطرات خفيفة تسقط ببطء، لا صوت لها، كلها رائحة منعشة، رائحة المطر والشجر والحجر والتراب، رائحة موسيقية هادئة تصارع الضجيج المزعج للعالم أو تقول أن ثمة راحة تخلق في صدر العالم رغماً عن حكايات الصخب والصراع، رغم فروض الأنين الذي ينتقل من قلبٍ إلى قلب، من لحظةٍ إلى لحظة، من الأزل إلى الأبد، هذه السماء هنا

تحارب منذ الزمن كل عنف التراب، تحارب بالنشوة والمعرفة والخيال، بالإرادة والشمس والإيمان، بكل ما بها من هباتٍ ونعم، السماء يد المستقبل، ما الإنسان حين تقول لوعة السماء كلمتها في قلب التاريخ؟ أحس زغروس بنشوة الزمن، بالحرية المتعالية فوق كل السقوف، ثم قال بصوتٍ مسموع لنفسه المتعبة "إنها لعبة عزيزي" متذكراً قول بيلان في نهاية الرسالة، وعاد ينظر في ما حدث حتى أنتبه إلى نقطة في غاية الأهمية، غمكين ليس غمكين الحقيقي والمجنون أيضاً ليس المجنون الحقيقي، أنهما بجسد غمكين والمجنون لكن روحهما لا تشبهان روحي غمكين والمجنون الحقيقيتين، لا فكرهما ولا كلامهما ولا حتى الحركات، ثم لماذا هما هنا، غبطة فرحة اشتعلت في قلب زغروس مستعيد رؤيته السابقة في ما يحدث، إنها اللعبة عزيزي زغروس، قفز فرحاً في مكانه ثم تقدم أكثر نحو النافذة وقبلها قبلةً حارة، أقبل على عقله يفكر في الخروج من هنا، ومع فكرته المفاجئة السريعة سمع وقع الأقدام ومع صوت الخطوات سمع رنين المفاتيح، رنينٌ أشبع قلبه بالحياة، كأن تسمع أجنحتك وأنت تطير مع الطيور في السماء الصافية النقية، إنه رنين لحظة اليقظة،

تدرك الحياة كلها في ومضة شعور شاعري، في قفزة محترفة نحو البحر، كشعور الموسيقى تماماً، رنين هزه من الصميم ليولد مجدداً، ليفتح أبواب حواسه على اللحظة،

"إنـها اللحظة" كرر مع نفسه وهو يستلقي على سريره متعباً نعساً إلى أن نام دون أن ينتبه أو يقرر ذلك.

15

غفلته لم تدم طويلاً، ربما لدقائق معدودة لا أكثر، تنشط ذهنه، أحس بثقلٍ في العقل، اكتظاظ فكري كبير وفوضى ساخنة، ترتطم الأفكار ببعضها في معركة هوجاء، ضوضاء وأصوات ولعنات ودماء تطير، صخب ما بعد صخب، كل فكرةٍ مع نقيضها، الثنائيات تتعارك، ظنون وشكوك، اليقين العنيف و التيه المتعالي، التفاهة والنقاء، الألم والفرح، القدر واللحظة، السخافة والأصالة، وحشٌ يركض ونبيلٌ يهرب، القيمة والمعنى، صحيح إنه عرف أن ما يحدث مجرد لعبة لكنها لعبة قذرة، كل الأبعاد بعيدة بمسافات شاسعة، إذ لايزال هنا، في اللعبة، تحت السقف، ينتظر الرهان القادم أو يقول فليحدث ما سيحدث، لم تعد ثمة نقمة أكبر مما ينبلج في قلبه، إنه نفسه قرب نفسه يحاول أن يكون إنساناً وإن كان الهواء يفسده رغماً عنه، إنه يقاوم اللعنة التي تظهر نفسها بين الزمن والزمن، بين المكان والمكان، بين الهواء والهواء، يقاوم توحشه الحيواني في داخله، يحاول أن يكون إنساناً، لكن سيحدث ما سيحدث، أو فليحدث، تحرك من مكان وهو يكرر "حسناً" بغيظٍ نبيل، نظر حوله، تمعن في المكان، الغرفة حارة جداً، الجدران تلتهب، كأنه الجحيم أو أكثر، من فعل ذلك؟ لكن ثمة ما هو أغرب، أشياء كثيرة اختفت، المعطف والورق والقلم وعلبة السجائر، حتى الضوء صار خافتاً، كيف حدث ذلك وهو لم ينم سوى دقائق

قليلة؟، نظر إلى الجدار فلم يجد النافذة أيضاً، صرخ من مكانه " ماذا يحدث هنا؟" نهض عن السرير يمشي كالراقص، كيف أخذوه إلى غرفة جديدة؟ نظر إلى زاوية الزنزانة فوجد زهرته في مكانها والعقرب الميت أيضاً، حتى الصندوق موجود، نظر في الممر، لا أحد، لا أصوات في القرب، يكاد يكون المكان مهجوراً، لكنه بعد ذلك بقليل سمع صوتاً من إحدى الزنازين يقول له

- ما بك صديقي؟

رد عليه زغروس بعجلة طفولية

- ماذا يحدث هنا؟ أين نحن؟ أين نافذتي؟ أين هم؟

نطق الآخر مع ضحكةٍ بسيطة

- أسئلتك فارغة جداً، لا أرى قيمةً في ما تفكر

غضب زغروس لوهلةٍ لكنه استرخى يقول

- حسناً، حسناً، قل لي أين هم لا أسمع أصوات المفاتيح؟ ألا ترى أن هذا السؤال قابل للقراءة!؟

انفجر الآخر ضاحكاً

-عما تتحدث يا رجل، ليس علينا أن ندري شيئاً ولا توجد نوافذ هنا ولا أحد يمشي في الممر والغرف تقفل وتفتح دون أن ندري كيف، لذا كل وأشرب ونم هادئاً

صرخ زغروس

- أنت أيضاً معهم.

ولول زغروس وصاح، هاج وانفجر حتى غاب وعيه ووقع في مكانه دونما سبب، ربما نشر غاز ما حين صرخ.

16

رفع زغروس رأسه عن الطاولة فوجد المحقق ينظر إليه بسخرية، فرك جفونه ومسد شعره وقال بصوتٍ هادئ

- ماذا الآن ؟

لمس المحقق أنفه باستهزاء وقال

- إنني نشيطٌ لك الآن أيها المتهم

نظر إليه زغروس بفضول وذكاء

- لقد كشفت لعبتكم فما هي تهمتي الآن؟

أشعل المحقق سيجارةً وقام يمشي في الغرفة قائلاً

- لا تفرح كثيراً فنحن من كشفنا لك كل ما كشفناه وسنكشف لك على مدى الأيام المقبلة حقائق جديدة نغير بها نظرتك إلى القضية.

أخذ زغروس علبة السجائر عن الطاولة وأشغل واحدة بتحدي وبوقاحة مقصودة فقال المحقق بفخرٍ وغرور

- حتى علبة السجائر أنا تركتها لأني عرفت أنك ستأخذ سيجارةً منها.

رد زغروس بضحكةٍ ساخرة

ـ أه حسناً، إنكم تتعبون أنفسكم في سبيل ما تذهبون إليه، لربما تمارسون ما تمارسونه هكذا دون معرفة كاملة بما تذهبون إليه وما يدفعكم إلى كل هذا التعب والجهد، عملكم مؤسف جداً، لا أراكم إلا آلات تطبق أوامر مبرمجة، لكنني أريد أن أقول لك ما تجهله حق الجهل، ما لن تفهمه ابداً ما دمت داخل هذه الممارسة، عليك أن تعلم أن المجهول أعلى قدرةً من كل ممارسة منظمة وقد يأتي يوم عليكم تنهارون دون أن تعرفوا كيف، هذا ما عرفته وأنا داخل اللعبة التي صنعتموها لي.

عاد المحقق يجلس على كرسيه ثم نظر بتكبر نحو وجه زغروس

ـ ما لم تفهمه إننا عكسك تماماً، أنت في اللعبة ولن تفهمنا ما دمت فيها، قد تمتلك معرفة في الحياة لكننا نحن من نصنع الحياة كما هي لتعيشها وتمارس ما نريده نحن دون أن تدري ذلك، وكل صوت جديد في داخلك نحن نصنعه، حتى كل قدميك، لكن دعني أعطيك هديتك الجديدة وستشكرنا على ذلك كثيراً، أنت الآن في اللعبة، اللعبة في داخلك، إن كنت تريد أن تخرج فعليك أن تفهم قصتك أيها المتهم.

أطلق زغروس زفيره بعد أن استنفد كل شجاعته وقال بضجر

ـ عليكم أن تعلموا أنكم مهما حاولتم فلن أكون معكم ابداً.

ـ أيها المسكين، أتعلم إننا أخذنا منك اللحظة، أخذناها نعم، وببساطة، مضحك أنت الآن.

انفجر زغروس غاضباً مشتعلاً

ـ أعيد إلي لحظتي يا أوغاد.

نظر المحقق حوله ثم وجه صفعةً مفاجئة لوجه زاغروس وصاح يقول.

ـ معك شهر على نهايتك، لكن حتى لو خرجت فمحرمٌ عليك الموسيقى.

أخرج من جيبه إبرة ثم أسرع يحقنه بخفة، وقع رأس زغروس على الطاولة وهو يصيح "لماذا..لماذا..لماذا.."

17

هكذا، ذلك كل ما حدث، ربما أقل أو أكثر، لا أدري حقاً، لكن هذه عيوني وهكذا رأيت، حاولت، اقتربت، قربتكم من قلب القصة، من مشاهد ذاك اليوم الطويل، من كل نغمة نطقت بمشاعرها في حياة تلك اللحظات المتوترة الصاعدة نحو هذه اللحظة، أنا زغروس وأنا الراوي، نظرت إلي كآخر لأقول، لأرى، أو لأحاول كسر الجدران حول البصيرة، جريت مع الذاكرة في حقول الألغام والألغاز، كشفت ما كشفته وحجبت ما حجبته، اجتهدت في نطق روح تلك اللحظات باللغة التي تغيرت مع كل لحظة ومشهد وشعور وفكرة، باللغة التي تمثلت ذاتها في رؤية خيالٍ وجد في الذاكرة البشرية، مع كل الهواء المغامر والريح العنيفة، مع كل الضوء والعتمة في المشهد الخارجي والداخلي، عني وعما جرى، لكن هل هذه هي الحقيقة؟ لست أدري حقاً، أنا فقط رأيت الذاكرة تكتب، وكتب ما كتب، تمرداً أو خنوعاً، ندماً أو نصراً، حقيقةً أو خيالاً، كل الأشواك الحادة

والأوراق اللطيفة مرت في حنجرة الذاكرة وساق القلم، جريت في التاريخ لأصنع تاريخاً يحارب ذاته، بالإنسان الذي كنته في كل لحظة، بالطفولة والشيخوخة، بالألم والفرح، بالحب والكره، باللحظة التي تحارب شيئية الزمن، وبالموسيقى التي تنفجر في قلبي في كل لحظة وجود لي، أنا

المحارب وأنا الطفل الذي يدنو نحو حضن الحياة بفضول، برغبة الكشف وبرغبة الكينونة، بالخفة والثقل، بكل الأسلحة الإنسانية الممكنة، كتب كل ما كتب هنا بالذاكرة وبرؤيتي عن كل ذكرى وقد يكون كل شيء محض أوهام لسجين مجنون، وبالرغبات التي تغيرت مع كل يوم قضيته هنا في هذا السجن أو في هذه اللعبة، لقد مر ما يقارب شهر وأنا أعود لذاك اليوم وأكتبه، غداً هو آخر الحكاية أو أول الموت، لا أعلم حقاً، ما أعلمه إنني لم أفقد لحظتي، قد أكون فاقداً لغلافه لكنني أنبض بقلب لحظتي بعد، وأتقبل كل شيء قبولاً حسناً، كمصارع، كعائش، كحر، هذه حربي وليس علي إلا أن أحارب وأتقبل المعركة.

ثمة موسيقى في باطني، في كل الأعضاء، في كل الأفكار والمشاعر، حرب كبيرة، شرسة، نغمات تصرخ ونغمات تصمت، الإيقاع يهتز دائماً، بين الحركة والسكون، الحياة والموت يتصارعان علي وأنا هنا، في الحرب أو الحياة، قربي، قرب كل فجر وليل، كل كلمات الزمن وفواصل المكان، وأنا أنا وإن لم أكن، وإن لم أخرج وأنجو، أنا أنا، هكذا، بالحرب، بالقتال البشري على الجمال والقوة،

على المعنى والحقيقة، نحو النهاية، نحو كل أكيد قادم من المجهول، باللغة واللحظة، بكل ما بي من حياة وحرية، هذه هي اللحظة التي لم أكشفها لكم بعد، اللحظة حرب ساخنة، أرى ذلك بكل وضوح وغموض، اللحظة معركة الإنسان

الأبدية، إن كانت على شيء أو على اللاشيء، إن كانت بالشعور أو بالفكرة، إن كانت بالحضور أو بالغياب، كيفما كانت هي صراع باطني عنيف عنفاً حقيقياً ضارباً لكل حقيقة، نحو الغد أو نحو الماضي، في كل الطرق والجهات هي نحو ذاتها وقلبها، نحو الجوهرة الإنسانية الخالصة، حسنا والآن؟

أنا مثلكم لست أعلم أيضاً، أنتظر مثلكم، أتلهف مثلكم، أتخيل كل الفرضيات وأقول أحقاً هذا هو الغد؟ لكنه سيأتي كيفما كان، والآن، لدي الكثير لأكتبه لكن لم يعد ثمة وقت لذلك، سيأتون بعد قليل، تركت لكم كل ما لم يكتب

وللحظتي الخاصة كل ما كتب، والآن، هنا، فلنتخيل معاً النهاية الأقرب لقصتي أو للحظتي.

النهاية الأولى

لمح زغروس وجهاً مألوفاً خلف القضبان، إنها بيلان، قفز، صاح، هرول، أمسك بها بقوة، رغم الحديد الفاصل بينهما، كانت لا تزال صامتة، كلها صمت مدقع بالصمت، كأنها تقول، تكشف الحقيقة، أو ستفعل، ربما، ما هذا؟ غمكين أيضاً عاد، إنه واقف هناك، على بعد متر منها، هو أيضاً غائب عن أرض الكلام، كأنه يقول شيئاً، يكشف الحقيقة، المجنون أيضاً، ثمة إثارة غريبة، المشهد غير مفهوم ابداً، كل ملامحهم لا تفهم بالأدوات المتوفرة، لا أحد يتحرك أو يحرك شيئاً، كأن الزمن توقف، كل الخلايا، الأصوات، الحركات، المشاعر، الأفكار، توقف كل شيء، هكذا، واستمر، إلى ما لا نهاية، نحو زمن آخر غير هذا الزمن الكوني.

النهاية الثانية

صاح أحدهم

- زغروس لقد أفرج عنك، جهز نفسك للخروج

توقف زغروس والفرح يغمر قلبه، ملامحه تكاد تطير، رقص رقصةً غريبة، دار حول نفسه، كالمجنون أو كالحر

- إلى الحياة.. إلى الحياة... إلى الحياة.

لكنه بعد ذلك توقف فجأة بغرابة وعجب، نظر في المكان، في نفسه، فكر، جلس على سريره وضاع في شرودٍ عنيف، ثم وإذا به يكتئب كآبةً ثقيلة، ملامحه صارت تعيسة غارقة في التعاسة، قام من مكانه كالذي يمشي وهو نائم، ربط ساق الطويلة للزهرة بالسقف فوقه، أحضر كرسياً وصعد عليه، لف الساق حول عنقه، ثم شرد مرة أخرى، ثم وإذا به يسقط الكرسي بحركة مفاجئة، اختنق، تلعثم، احمر، مات.

النهاية الثالثة

انتظر زغروس بكل ما به من لهفة وقلق، بقوة وضعف، زمناً طويلاً، تحرك في الزنزانة كثيراً، ذهاباً وإياباً، صراخاً وصمتاً، دار حول نفسه لساعات ثقيلة، لم يتعب، لم يمل، لم يسقط، لم يتفوه بشيء، ثم وإذا به يقع على الأرض ويقوم، هكذا، مرةً بعد مرة، وهو يصرخ ويهذي بكلمات غير مفهومة، بنبرة غريبة، بوجه غريب، بضحكة وصرخة، بلعنة وشكر، يقفز ويقفز، يهذي ويتلعثم، يضرب رأسه بالجدران، يتصارع مع الأشياء الموجودة، يمزق وجهه، يفتح جروحاً في جسده بالأشياء الحادة الموجودة في الغرفة، نزف دماً وهو لايزال يستمر في حالته حتى جن تماماً.

النهاية الرابعة

جلس زغروس أمام الطاولة وأخذ سيجارة من العلبة وأشعلها، نفث الدخان بقوة ولذة، ثم نظر نحو المحقق وابتسم، ابتسم بخبث وبحب غريب.

- كيف حالك بعد كل ما جرى لك سيد زغروس

- بخير، بكل الخير الموجود في الكون.

- أه جيد، إذا عدت إلى رشدك لتفعل ما يجب أن تفعله.

- أرى ذلك، نعم، حقاً هو كذلك

- إذاً؟

- أنا معكم

النهاية الخامسة

بعد أن هرب زغروس من هناك بنى لنفسه بيتاً في غابة قريبة من السجن، وأنكب يعمل بجهد وبجد على قنبلة ينسف بها كل السجن، وبيوم وراء يوم حتى مضى عليه شهر كامل في عمله وجهزت القنبلة، فرح زغروس فرحاً كبيراً، رقص رقصته الغريبة ثم شرب وسمع الموسيقى إلى أن نام.

النهاية السادسة

ـ أين اختفى سجين هذه الزنزانة

ـ لا أعلم، لا أحد يعلم، فقط اختفى

ـ أنظر، ما هذا؟

ـ إنها زهرة أيها الأحمق

ـ ماذا يعني ذلك؟ لم أفهم

ـ يعني أنك يجب أن تتذوق عطرها

ـ لماذا؟

ـ ألهذه درجة أنت غبي

ـ قل لي، لقد أعجبتني

ـ حقاً، كيف ستعجبك إذا لم تفهمها

ـ لا أعلم، أنت قل لي

ـ أنا أيضاً لا أعلم

ـ حسنا؟

ـ دعنا نتذوق العطر

ـ أه حسناً، فلنقترب، نعم

ـ نعم، ها أنا أشم، إنه لذيذ

ـ أه حقاً، رائحتها منعشة جداً

ـ أشعر إنني سأمضي

ـ نعم أنا أيضاً، لكن إلى أين؟

ـ لا أعلم

ـ إذا؟

ـ إذا فلنمضي فقط

النهاية السابعة